شعر البوصيري بين الرؤية الواقعية والخلفية الروحية

Al-Busiri's Poetry: Between Realistic Vision and Spiritual Background

أنس عطية الفقي *

anasatia@hotmail.com

الملخَّص:

هذا البحث يتناول **شعر البوصيري بين الرؤية الواقعية والخلفية الروحية**، والمقصود بذلك الجانب المعبر عن الرؤية التفسيرية الخاصة بالشاعر لما يدور حوله من أحداث، وما وراءها من خلفية عقدية وروحية.

وشرف الدين البوصيري شاعر مصري كبير ولد بمصر سنة 608هـ، وعاش بها، وتُوفيَ بها سنة 696هـ وكانت فترة حياته حافلة بالأحداث الكبرى التي غيرت مسار التاريخ، ونقلت عاصمة الخلافة الإسلامية من بغداد إلى القاهرة. ومن هنا كانت دراسة شعره على درجة كبيرة من الأهمية لما تحمل من أصداء هذه الأحداث وتأثيرها على الناس في ذلك العصر.

كما أن شعره يعد مرآة واسعة لعصره وما جرى فيه من أحداث؛ ذلك لأن البوصيري– وإن اشتهر بالمديح النبوي– كان متفاعلا مع الواقع، يعيش حياة الناس، فهو رب أسرة كبيرة، متوسطة الحال، خاض غمار الوظائف في عصره، وكشف لنا عن أوجه الفساد فيها، كما أنه اتصل برجال الدولة في عصره، بالإضافة إلى أنه تصوف وخالط أهل العلم والفقه، فحياته حافلة بالأحداث المتنوعة، التي وردت أصداؤها في ثنايا شعره.

* أستاذ الأدب العربي كلية اللُّغات والترجمة – جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا.

* مدير مركز تحقيق التراث العربي – جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا.

من هنا جاء هذا البحث عن الاتجاه الواقعي في شعره وخلفيته الروحية، ليمثل لبنة تضاف إلى الدراسات المتصلة بأدب مصر الإسلامية، علّه يكشف عن ملابسات الحياة المصرية في تلك العصور التي كانت مصر فيها رائدة العالم الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: شعر البوصيري؛ العصر المملوكي؛ فلسفة الحياة؛ مدح السلاطين؛ نقد الذات والمجتمع.

Abstract:

This research argues the poetry of Al-Busiri, focusing on the balance between realistic vision and spiritual background. It aims to explore how the poet interprets the events around him and the underlying religious and spiritual contexts.

Sharaf al-Din al-Busiri was a prominent Egyptian poet born in Egypt in 608 AH (1211 AD). He lived and died there in 696 AH (1296 AD). His lifetime was marked by significant events that changed the course of history, especially the transfer of the Islamic Caliphate's capital from Baghdad to Cairo. Therefore, studying his poetry is of great importance as it reflects the echoes of these events and their impact on people of that era.

Al-Busiri's poetry serves as a broad mirror of his time and the events that transpired. Although he is well-known for his prophetic praise poetry (madih nabawi), he was deeply engaged with the reality of his surroundings. He lived an ordinary life as the head of a large, middle-class family and worked in various occupations of his time, revealing aspects of corruption within them. He also interacted with state officials and was involved in Sufism, mingling with scholars and jurists. His life was rich with diverse experiences, the echoes of which are found throughout his poetry.

This research examines the realistic direction of his poetry and its spiritual background, adding a valuable contribution to the studies of Islamic Egyptian literature. It aims to uncover the intricacies of Egyptian life during the periods when Egypt led the Islamic world.

Keywords: Al-Busiri's poetry, Mamluk era, Philosophy of life, Praise of sultans, Critique of self and society.

مقدمة

هذا البحث يتناول **شعر البوصيري بين الرؤية الواقعية والخلفية الروحية،** والمقصود بذلك الجانب المعبر عن الرؤية التفسيرية الخاصة بالشاعر لما يدور حوله من أحداث، وما وراءها من خلفية عقدية وروحية.

والشعر بطبيعته الفنية يفتح مجالا واسعا لإبداء الرأي في صور متعددة؛ حيث تتيح له لغته الخاصة إمكانية التعبير ليحلق الشاعر في فضاء المعاني والدلالات والإيحاءات المفتوحة فيصدح بما يطربه ويؤلمه.

وهذا الاتجاه في الشعر لا يخلو –بطبيعة الحال– من النزعة الذاتية، بمعنى أنه لا يمثل رأيا موضوعيا صرفا، ولكنه يمكن أن يمثل إضاءة للواقع، وبالتالي دعما لحقائق يمكن أن تضاف إلى سجل المعرفة الإنسانية.

والأدب بصفة عامة يتناول أمورا نفسية واجتماعية لا تتيسر للمعرفة الإنسانية إلا من خلاله، صحيح أن الأعمال الأدبية لا تقرر ولا تسرد الحقائق بطريقة مباشرة، ولكنها تحكي أو تحاكي الواقع من خلال نفسية الأديب. وتلك ميزة إضافية للبحوث الأدبية، حيث يصبح أمام الباحث أكثر من جانب معرفي يمكن استنباطه من خلالها: فهناك الجانب الواقعي أو التاريخي، وهو ما تمثله الأحداث أو المواقف التي انفعل بها الشاعر. وهناك الجانب النفسي المصاحب، وهو ما يمثله الأديب أو الشاعر نفسه من خلال انفعاله العاطفي إزاء موضوع معين، فالأديب بطبيعته الفنية قد يعبر عن قطاع عريض من المجتمع، يضم كثيرا من الشرائح الاجتماعية، بل قد يعبر عن روح الشعب بصفة عامة. وهناك الجانب الفني، وهو ما تمثله صياغة النص من جماليات فنية. فإذا أضفنا إلى هذه الجوانب الرؤية التفسيرية التي يمكن استنباطها فقد نستطيع أن نثري البحوث الأدبية بما يزيد من مكانتها في مجال الدراسات الإنسانية.

وشعر البوصيري يعد مرآة واسعة لعصره وما جرى فيه من أحداث، ذلك لأن البوصيري- وإن اشتهر بالمديح النبوي- كان متفاعلا مع الواقع، يعيش حياة الناس، فهو رب أسرة كبيرة، متوسطة الحال، خاض غمار الوظائف في عصره، وكشف لنا عن أوجه الفساد فيها، كما أنه اتصل برجال الدولة في عصره، بالإضافة إلى أنه تصوف وخالط أهل العلم والفقه، فحياته حافلة بالأحداث المتنوعة، التي وردت أصداؤها في ثنايا شعره.

من هنا جاء هذا البحث عن الاتجاه الواقعي في شعره وخلفيته الروحية، ليمثل لبنة تضاف إلى الدراسات المتصلة بأدب مصر الإسلامية، عله يكشف عن ملابسات الحياة المصرية في تلك العصور التي كانت مصر فيها رائدة العالم الإسلامي.

وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن أمهد لها بمهاد تاريخي عن الشاعر والظروف الاجتماعية والسياسية التي كانت تحيط به، ثم أستعرض بعد ذلك تلك الظواهر في شعره، بدءا من نظرته إلى الإنسان والكون، ونقد الذات، ومرورا بالنقد الاجتماعي والسياسي.

المهاد التاريخي

الشاعر والعصر

شرف الدين البوصيري شاعر مصري كبير، ولد بمصر سنة 608هـ، وعاش بها، وتُوفيَ بها سنة 696هـ[1]. وكانت فترة حياته حافلة بالأحداث الكبرى التي غيرت مسار التاريخ، ونقلت عاصمة الخلافة الإسلامية من بغداد إلى القاهرة. ومن هنا كانت دراسة شعره على درجة كبيرة من الأهمية لما تحمل من أصداء هذه الأحداث وتأثيرها على الناس في ذلك العصر.

وقد ذكر الصفدي والمقريزي وغيرهما من المؤرخين أن اسم البوصيري هو محمد بن سعيد بن حماد، وأنه ينحدر من قبيلة صنهاجة التي تقطن بلاد المغرب العربي، وأن أباه من بلدة بوصير المصرية التي تقع بين الفيوم وبني سويف، أما أمه فهي من بلدة دلاص المصرية أيضا؛ حيث يذكر ياقوت[2] أنها كانت اسم ولاية تقع غربي النيل مركزها مدينة دلاص وهي ملحقة بالبهنسا.

عاش البوصيري في القرن السابع الهجري حياة مديدة تتجاوز الخمسة والثمانين عاما شهد خلالها تطورات تاريخية عظيمة أهمها سقوط بغداد على أيدي التتار، وانهيار الخلافة العباسية في بغداد، ثم قيام دولة المماليك بعد انتصارهم التاريخي على التتار في عين جالوت، ثم إحياء الخلافة العباسية مرة أخرى في القاهرة على يد السلطان الظاهر بيبرس الذي حرص على إحياء الخلافة لتظل رمزا يجمع الأمة الإسلامية، وفي الوقت نفسه لكي يجعل لدولته صبغة شرعية تمكنه من حكم العالم الإسلامي تحت اسم الخلافة العباسية.

كما أن البوصيري عاش قبل ذلك ردحا من حياته تحت حكم الدولة الأيوبية التي كانت قد قامت على أنقاض الدولة الفاطمية. فعلى ذلك يعد البوصيري من

مخضرمي العصرين الأيوبي والمملوكي، كما يُعد – بما عاشه من حياة مديدة – شاهدا على عصرين من أهم عصور التاريخ الإسلامي.

ونحن إذا قسمنا حياة أي شاعر إلى قسمين، فمن الطبيعي أن يكون القسم الثاني من حياته أكثر نضجا وعطاء وتفاعلا؛ حيث تكون موهبته قد نضجت وآتت ثمارها من النتاج الشعري، وهذا ما نلحظه في شعر البوصيري؛ فمعظم الشعر الذي ارتبط بمناسبات وبمواقف معينة كان في عصر المماليك، أي في الشطر الثاني من حياته، وقلما نجد له شعرا قيل في العصر الأيوبي على الرغم من أنه عاش فيه أكثر من أربعين سنة، ولا نستطيع أن نجزم بأنه اتخذ موقفا رافضا للدولة الأيوبية بسبب موقفها من الفاطميين الذين كان يميل إليهم على حسب ما في شعره من إشارات، فقد يكون له شعر في الدولة الأيوبية ولكنه لم يجمع في ديوانه لسبب أو لآخر، فأغلب دواوين الشعراء لم تجمع إلا بعد وفاتهم. وقد أشار محقق ديوان البوصيري أن الشاعر نفسه لم يجمع شعره في ديوان،[3] فالديوان الذي بين أيدينا قد جمعه غيره.

كان المماليك يمثلون القوة العسكرية للدولة منذ العصر الأيوبي، ولكنهم لم يؤسسوا دولتهم ويصبحوا سلاطين إلا بعد موت الملك الصالح نجم الدين أيوب وقتل ابنه توران شاه، على أيديهم، وكانت المؤامرات والاغتيالات ديدنهم في الوصول إلى السلطة، فالبقاء للأقوى، والأقوى هو ذلك الأمير الذي يستطيع حشد أكبر قدر من الأمراء إلى جانبه وتعزيز مكانتهم لديه مع إشعارهم بهيبته وسطوته إذا لزم الأمر، كما فعل الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون اللذان أسسا أسرتين حاكمتين من المماليك.

والقارئ في مصادر التاريخ لهذه المرحلة يظن أن سلاطين المماليك لم تشغلهم سوى هذه المؤامرات والحروب، ولكن الواقع ينبئ بغير هذا؛ فمن سلاطين المماليك من قام بإصلاحات اقتصادية كبيرة وبناء عمائر وصروح

علمية كالمدارس ونحوها، ويجب أن نلاحظ أن عصر المماليك كان عصرا زاخرا بالعلماء في مختلف الفروع المعرفية كابن النفيس، وابن خلدون، وابن منظور، وغيرهم.

ومن المؤكد أن عصرا يفرز مثل هؤلاء العلماء لم يكن عصرا مظلما أو متخلفا. وهذا العصر هو الذي قال فيه ابن خلدون عن مصر المملوكية: "ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر، فهي أم العالم، وإيوان الإسلام، وينبوع العلم والصنائع"[4]

هذه النقطة يجب أن تكون واضحة عند تناول أية قضية من قضايا هذا العصر حتى تكون الدراسة موضوعية بعيدة عن تكرار المعهود من كلام بعض الباحثين الذين يقولون إنه كان عهد ظلم مطبق واضطهاد مطلق. ولكننا في الوقت نفسه لا نستطيع أن ننكر أنه قد كان في هذا العصر بعض التجاوزات، فلذا، يجب أن ينظر إليها من منظور موضوعي، يضع في اعتباره فكر المرحلة وملابساتها.

ومن هنا؛ فقد تكشف لنا هذه الدراسة مجموعة من المظاهر السلبية والإيجابية بما يبرز وجه الحياة في هذه المرحلة بصورة موضوعيه.

وعلى الرغم من كثرة المؤامرات والفتن والانقلابات العسكرية التي عمت حكم المماليك، فإن الفترة التي عاشها البوصيري شهدت شيئا من الاستقرار النسبي، وذلك لطول مدة حكم بعض سلاطينها كالظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل، ففي عهد هؤلاء تم تحقيق انتصارات عسكرية كبرى ضد التتار والصليبيين حتى تم تصفية آخر جيوب الصليبيين بالمشرق وهي مدينة عكا سنة 690هـ التي شارك البوصيري بشعره في الاحتفال بها على نحو ما أورد المقريزي في "السلوك" بقوله: "واتفق أيضًا أن الشيخ شرف الدين البوصيري رأى في منامه قبل أن يخرج الأشرف إلى عكا قائلا ينشده:

قَــد أخــذَ المســلمونَ عكّــا وأشــبَعوا الكــافرين صــكّا
وســاقَ سُــلطانُنا إلــيهمْ خــيْلا تــدكُّ الجِبــال دكّــا
وأقسَــم التــركُ منــذ ســارتْ لا تَتْركــوا للفِــرنج مُلْكــا

فأخبر بذلك جماعة، ثم سار الأشرف بعد ذلك وفتح عكا وخربها، لم يدع في بقية الساحل أحدًا من الفرنج، وقال محيي الدين بن عبد الظاهر في ذلك:

يــا بنــي الأصــفِرِ قــد حــلَّ بكــم نقمــةُ اللهِ التــي لا تنفصــلْ
نــزل الأشــرفُ فــي ســاحلِكمْ أبشــروا منــه بصــفعٍ متصــلْ

وقد أكثر الشعراء في ذكر هذا الفتح، وقال الشهاب محمود الحلبي كاتب الإنشاء لمّا عاين في جوانب عكا، وقد تساقطت أركانها:

مــررتُ بعكــا بعــد تخريــبِ ســورِها وزَنــد أُوارِ النــارِ فــي وسْــطِها واري
وعــاينتُها بعــد التنصُّــر قــد غــدتْ مجوســيةَ الأبــراجِ تســجدُ للنــار"[5]

وفي هذه الفترة أيضا تم كثير من الإصلاحات الداخلية وبناء المدن والعمائر وكذلك إنشاء المدارس والمارستانات، من ذلك القبة المنصورية التي أنشأها المنصور قلاوون لتكون مدفنا له ولبعض أبنائه، ومكانا لتعلم القرآن والعلوم الدينية، وكذلك المارستان المنصوري الكبير الذي أشاد به الشعراء، وكان من أعظم دور الاستشفاء وقتها، وقد قال فيه البوصيري قصيدة مشهورة ذكرها المؤرخون عند حديثهم عن هذا الصرح[6].

أما عن سياسة المماليك الداخلية وعلاقاتهم بالشعوب المحكومة فلم تكن على خير ما يرام، فالفئة الحاكمة فئة عسكرية تعودت أن تحكم بأسلوب القهر، وأن ترفض الصوت المناوئ، ولكنها مع ذلك اتخذت من الإسلام دينا وجعلته

مستندها الشرعي في الحكم، فكان طبيعيا أن تجتذب علماء الدين وتجعل منهم الوزراء والقضاة وولاة أمور الناس.

ولم يكن هذا المسلك من ابتداع المماليك، فقد سلكه قبلهم الأيوبيون السلاجقة والبويهيون ليتمكنوا من حكم شعوب إسلامية تقدس الدين وتحترم علماءه. ولا يخفى ما لهذا المسلك من أهمية في إعطاء الحكام الأعاجم مشروعية إسلامية وإحاطتهم بهالة من التقدير والإكبار وبخاصة في عصر أمراء المماليك الذين كانوا في الأصل رقيقا ثم شاء الله أن يحكموا العالم الإسلامي.

يقول د. محمد زغلول سلام في معرض حديثه عن حكم المماليك: " ولما كان سندهم الشرعي هو الإسلام فقد حرصوا على التمسك به ظاهرا وإبراز الاهتمام بالدفاع عنه وعن مقدساته، وبدت مظاهر هذا الاهتمام في الرعاية للخلافة والاهتمام بها شكلا .... ومن ثم اهتم سلاطين المماليك بالحفاظ مظهرا على أمور الدين، ورعاية أوامره ونواهيه أمام الناس وجماعة العلماء والفقهاء"[7]

أما من جانب الشعب فقد وجد الناس في المماليك القوة المنشودة للجهاد والحماية لدينهم وديارهم ورأوا في فروسيتهم وشجاعتهم ما يعوض الجانب العسكري المفتقد لديهم، وارتضوا ذلك لكونهم مسلمين مثلهم ومحافظين على حدود الدين، بغض النظر عن عرقهم التركي أو الشركسي. بل إن الشعراء في هذا العصر كانوا يشيدون بالعنصر التركي الذي يتميز بالفروسية والشجاعة يقول شهاب الدين محمود في فتح عكا وتصفية جيوب الصليبيين في عهد الأشرف خليل:

الحمـدُ لله ذلـتْ دولــة الصـلبِ وعز بـالتركِ دينُ المصطفى العربـي

هذا الذي كانتِ الآمالُ لو طلبت رؤياه في النومِ لاستحيت من الطلبِ

مـا بعد عكا وقد هُدَّت قواعدُها في البحر للشرك فيها كفٌّ مغتصب[8]

ويقول:

جيشٌ من التركِ تَركُ الحربِ عندهمُ عارٌ وراحتُهم ضربٌ مـنَ الضـربِ

فهو هنا يشيد بالعنصر التركي في أكثر من موضع في قصيدته، يصفهم بأنهم سبب عزة الإسلام وتحقيق النصر، وأنهم ألفوا الجهاد والشجاعة وتركوا الراحة والدعة. ولعله بهذا يعبر عن شعور الناس إزاء هؤلاء الحكام في هذا الجانب.

ومع هذا فلم يكن الشعب راضيا على طول الخط بما يفعله هؤلاء وبخاصة في السياسة الداخلية حينما يتعلق الأمر بأقوات الناس كفرض الضرائب والمكوس، وانتشار الرشا والظلم في توزيع الثروة. مما تسبب في فقر كثير من الناس، وقد ظهرت أصداء هذا الفقر في قصائد البوصيري وابن دانيال وغيرهما من شعراء العصر الذين سجلت أشعارهم مظاهر الفقر والعوز التي كانت تجتاح هذا الشعب الأعزل الذي لا يملك إلا أن يسلم للأقوى ويذعن للأمر.

هذه الظروف وغيرها مما سنذكره في طي هذه الدراسة كانت ذات أثر كبير في إبراز الاتجاه الواقعي في شعر البوصيري. وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا إن شعر البوصيري كله بمدائحه الدينية ومدائحه الدنيوية وقصائده الأخرى لم تخل قصيدة منه من هذا الاتجاه الواقعي الناقد الذي يحاول أن يفسر القضية ويعطي السبب وربما يقدم حلولا وفق خلفيته الروحية. وقد يأتي كل ذلك ممزوجا بروح الشاعر معبرا عنه بلغة الشعر وأسلوبه، وقد يتجاوز البوصيري حد الشعر حينما يعمد إلى فرض هذا الاتجاه فرضا فيبدو وكأنه خطيب أو كاتب مقال يعطي مقدمات ويخلص إلى نتائج كما ظهر في قصيدته الطويلة في محاجة اليهود والنصارى، التي اضطر فيها أن يخلط الشعر بالنثر وأن يعرض الأمر وكأنه شارح للقضية.

اشتهر البوصيري بأنه صاحب بردة المديح النبوي، ولكنه في عصره الذي عاش فيه كان شاعرا مشهورا بشعره عامة، ولعل شهرته في المديح النبوي جاءت بعد وفاته حيث تناقل الصوفية مدائحه وعلى رأسها البردة. ونالت من الحظوة ما رفع شهرتها عن شهرة البردة الأصلية "بانت سعاد" لكعب بن زهير، والغريب في هذه الحظوة أن البوصيري نفسه قد عارض البردة الأصلية في قصيدة له سماها: ذخر المعاد في وزن بانت سعاد وهي مشهورة أيضا، ولكنها ليست بالقدر نفسه الذي اشتهرت فيه بردته المعروفة "**أمن تذكر جيران بذي سلم**".

فشعر البوصيري ليس كله مديحا نبويا، أو شعرا صوفيا. بل هو شعر شاعر إنسان عاش في عصر له أهميته التاريخية، وتفاعل مع أحداث ذلك العصر رغبة، ورهبة، ودينا، ودنيا، كل ما هنالك أن الجانب الروحي كان عنده له حضور واضح في شعره، كما أنه يتميز بالحرص على مصلحة وطنه ومجتمعه ويكره الفساد الاجتماعي والإداري، وقد يبدو للوهلة الأولى أن لديه نزعة طائفية عنصرية ضد اليهود والنصارى، ولكن القارئ المتفحص لديوانه وللظروف المحيطة يجد أن ذلك لم يكن غير رد فعل لما شاهده ورآه من ظروف دعته للاعتزاز بدينه ووطنه.

والبوصيري لم يكن شاعرا مغرورا بنفسه، بل كان ينتقد ذاته وينتقد أسرته القريبة ويمكن أن ينتقد ممدوحه بطريقة مهذبة لا تحط من قدره، المهم أن شخصيته تتميز بهذا الطبع الناقد. ومن هنا أشار بعض الباحثين إلى أهمية قصيدته التي انتقد فيها المستخدمين بهذه الصورة الواضحة المعبرة التي تمثل وثيقة لأحوال المجتمع. يقول الدكتور بدوي بعد استعراضه للقصيدة سالفة الذكر: "وإذا أسقطنا بعض ما يكون في هذا الشعر من المبالغة فإنه بلا ريب يعطينا صورة لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية ... وتلك ومضات نقدية قلّ أن نراها في

شعر العصر وهي جديرة بأن تكشف عن صورة هذا العصر وحياته الاجتماعية..."[9]

الاتجاه الواقعي الناقد في شعره:

الاتجاه الواقعي الناقد لا يعني فقط ذكر السلبيات أو أوجه القصور، بل إنه يعني هنا النقد بمعناه الواسع الذي يشمل الإيجابيات والسلبيات، وكذلك النظرة الفاحصة في تفسير القضايا العارضة. وقد يأتي هذا النقد مباشرا أو قريب المأخذ، وقد يأتي غير مباشر يفهم من سياق الكلام، كما أنه قد يأتي في ثوب تعبيري مدحي يناسب رؤية الشاعر، في الوقت الذي يبدو للقارئ وكأنه تزلف ممجوج أو مدح مبالغ فيه. وهذه الملحوظة الأخيرة يجب أن توضع في نصابها، لأن الشاعر أحيانا قد يرى أن المدخل الصائب في إصلاح الحاكم أو الأمير يجب أن يكون من خلال المديح حسب ثقافة العصر وفلسفته؛ لأن البديل شاق وعسير، فقد يصل إلى حد القتل ولن يؤدي ذلك إلى الإصلاح، بل ربما يتمادى الحاكم في قهره وظلمه.

فالطريقة التي اتبعها البوصيري مع حكام وأمراء المماليك كادت تصل إلى درجة "التربوية" أو "الدبلوماسية" إن جاز التعبير، يحاول من خلالها تأليف قلوبهم ثم يوجههم بطريقة أو بأخرى إلى ما يراه صالحا لخدمة الناس. وسنرى ذلك في موضوعه عند الحديث عن الاتجاه الناقد الكامن في مديح الحكام.

ولما كان الاتجاه الواقعي الناقد بالمعنى السابق يتسع لطرح رؤية البوصيري في الإنسان ووجوده في الكون أثرنا أن نبدأ بها تفصيلات هذا الاتجاه.

- **نظرته إلى الإنسان والكون:**

لا توجد في ديوان البوصيري قصائد فلسفية مستقلة، ولكن فلسفته تظهر من خلال قصائده المتنوعة وبخاصة تلك التي تخص الجانب الروحي كقصائد المدح

النبوي أو مدح آل البيت وكذلك مديح شيوخه في التصوف، فهذا الجو الروحي هو الذي يبرز رؤية البوصيري الحقيقية للإنسان ودوره في هذه الحياة.

وقد برزت قضية الإنسان بوضوح في قصيدته الرائعة التي تربو على مائة وعشرين بيتا والتي صاغها في شيخيه الشيخ أبي العباس المرسي وأبي الحسن الشاذلي عند قوله بعد مطلعها:

إنَّ الفَنَـــاءَ لكـــلِّ حَـــيٍّ غايَـــةٌ مَحْتُومَـــةٌ إنْ لَـــمْ يَكُـــنْ فكـــأَنْ قـــدِ

وارَحْمَتَـــا لِمُـــصَوِّرٍ مَتَـــطَوِّرٍ فـــي كـــلِّ طَـــوْرٍ صـــورَةَ المُتَـــردِّدِ

قَـذَفَتْ بـه أَيْـدِي النَّـوَى مِـنْ حـالِقٍ سـامِي المَحَـلِّ إلـى الحَضـيضِ الأوهَـدِ

إنها فلسفة القرآن الكريم نلمح وراءها قصة آدم وخروجه من الجنة الأولى في كنف الرحمن إلى أرض الشقاء:

قَـذَفَتْ بـه أَيْـدِي النَّـوَى مِـنْ حـالِقٍ سـامِي المَحَـلِّ إلـى الحَضـيضِ الأوهَـدِ

وشتان ما بين الحالين، ولكنه القضاء وسطوته. وعلى الرغم من أنه سبحانه قد خلق للإنسان ما في الأرض جميعا ليأنس به، إلا أن الإنسان لا يأنس إلى شيء، فهو مستوحش على الرغم من أنسه؛ حيث لا يأنس إلا بربه الأعلى، ولذلك فهو يحن إلى التوحد به، والعودة إلى أول معهد:

مُسْـــتَوْحِشٍ فِـــي أُنْسِـــهِ مُتعاهِـــدٍ بحنِينِـــهِ شَـــوْقًا لأَوَّلِ مَعْهَـــدِ

إنه النَّفَس الصوفي الذي يحن دائما إلى التعلق بمحبوبه الأعلى والتوحد به، إنه الروح الإلهي الكامن في الإنسان الذي يطمح إلى الخلود، ولا يجد في هذه الحياة الدنيا ما يروي غلته فيظهر لدى الخاصة في صور متعددة، فقد يكون شوقا وعشقا، وقد يكون رجاء في جنة الخلد لدى العباد السالكين، أو قد يكون في صورة رغبة في الخلود والاستعلاء لدى سواهم من أهل الدنيا، المهم أن

الإنسان بشتى صوره لا يمكن أن يقر في هذه الحياة الدنيا فهو دائما في حالة تعلق بآمال وأماني، أصاب طريقها من أصاب وأخطأ طريقها من أخطأ.

ولولا أسباب الحياة التي فرضت عليه فرضا لطار مشتاقا إلى موطنه الأول.

منعتــه أســبابٌ لديــه رجوعَــه فاشــتاقَ للأوطــانِ شــوقَ مقيــدِ

ولكن الحمل ثقيل، والأمانة قاسية، والإنسان – كما يقول القرآن الكريم – "كان ظلوما جهولا" تعهد حمل أمانة تعجز عن حملها الجبال الرواسي، مع أن عزيمته خائرة لا تساعده، فعاش حياته في خطتي خسف: أمامه التكليف ووراءه القدر الصارم:

يــا لَيْتَــهُ لَــوْ دامَ نَسْــيًا مــا لَــهُ مِــنْ ذاكِــرٍ أوْ أنــهُ لــم يُولَــدِ

حَمَـلَ الهَـوَى جَهْـلًا بأَثْقَالِ الهَـوَى مُسْــتَنْجِدًا بعزيمـــةٍ لـــم تُنْجِـدِ

مــا إنْ يَــزالُ بمــا تَكَلَّــفَ حَمْلَــهُ فــي خُطَّتَـي خَسْـفٍ يَـرُوحُ وَيَغْتَـدِي

غَرضًــا لأَمْــرٍ لا تَطــيشُ سِــهامُهُ ومُعَرَّضًـــا لِمُعَنِّـــفٍ ومُفَنِّـــدِ

فالإنسان في نظر البوصيري يعيش في امتحان كبير، فهو عرضة لنوازل القدر التي لا تخطيء، ومطلوب منه أن يقوم بحقوق خلافة الله في الأرض. إنها معادلة صعبة تذكرنا بقول الحلاج:

أَلقـاهُ فــي الـيَمِّ مَكتوفًـا وَقـالَ لَـهُ إِيّــاكَ إِيّــاكَ أَن تَبتَــلَّ بِالمــاءِ

إنها الحيرة الأزلية للإنسان في مبدئه ومنتهاه. يقول البوصيري:

وَخَلِيفَـــةٍ فـــي الأرضِ إِلَّا أنَّـــه مُتَوَعَّـــدٌ فيهـــا وعيـــدَ الهُدْهُـــدِ

وَجَـبَ السُّـجُودُ لـهُ فلمـا أنْ عصـى قالــت خطيئَتُــهُ لــهُ اركـعْ واسْـجُدِ

إنه خليفة الله في الأرض ومع ذلك فهو يعيش متوعدا فيها وعيد الهدهد، وفي هذا إشارة إلى قصة سليمان عليه السلام حينما توعد الهدهد بقوله:

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾(النمل)

فهو –مع كونه خليفة الله في الأرض– مكبل بشهواته ورغباته، ولابد له أن ينخلع منها وإلا ستسوء عاقبته وبئس المصير.

والإنسان هو السبب الذي أوصل نفسه إلى هذه المحنة القاسية؛ لأنه كان أصلا في الجنة مكرما معززا، أوجب له ربه سجود الملائكة طالما كان مطيعا لربه، فلما عصى هوى إلى أرض الشهوات التي أذلته، وكأن لسان الحال يقول هذا اختيارك، فأنت الذي جنيت على نفسك.

ويلجأ البوصيري إلى المفارقة التصويرية ليؤكد المعنى الذي رمى إليه حينما يكرر لفظة السجود في صورته التي صاغها في الشطر الثاني من البيت:

وجب السجودُ له فلما أن عصى قالت خطيئتُه له اركع واسجدِ

فالمفارقة واضحة بين الحالين: حال من تسجد له الملائكة وجوبا؛ وحال من يركع ويسجد هو للخطيئة امتثالا. فشتان مابين الثريَّا والثرى.

ويواصل البوصيري تفسير نظرته للإنسان والتي تصطبغ –بطبيعة الحال– بالصبغة الإسلامية والنزعة الصوفية فيقول:

وَنَبَتْ به الأوطان فهْوَ بِغُرْبَةٍ ما بينَ أعداءٍ يَسيرُ وحُسَّدِ

أنفاسه تُحصَى عليه وعِلمُ ما يُقضَى إليه غدا له حُكمُ الغدِ

فهو يرى أن الإنسان يعيش غريبا بين بني جنسه لأنهم في غالبيتهم إما أعداء أو حساد، ووصف الناس عامة بهذه الصفات أمر مقرر ومعروف بين الناس أنفسهم، والقرآن الكريم قد وصف الإنسان بما يشبه ذلك:

﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (إبراهيم) ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ (عبس) ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (يوسف)

لذلك فقد قدر للإنسان أن يعيش في غربة بين أقرانه؛ لأن كلا منهم يريد تحقيق رغبته الخاصة على حساب الآخر، ويتنافسون في جمع الدنيا؛ فينشأ ما حول هذا التنافس من عداوة وحسد، فأين الصديق الرفيق الذي يتوحد مع أخيه ويترفع عن الدنيا؟ ذلك ضرب من المستحيل. إنها غربة يجب أن تدفع الإنسان إلى الحنين إلى معهده الأول.

ثم يبين البوصيري حيرة الإنسان التي تؤرقه طوال حياته حيث يعيش ولا يعلم ما سيجري عليه غدا، لقد وهب ملكة الخيال، ولكنه لا يستطيع أن يقرر شيئا فهو مكبل بأحكام بالأقدار من ناحية، وبشهواته من ناحية أخرى، كل ما هنالك أن أنفاسه تحصى عليه، فما أعظمها حيرة. يقول:

أنفاسه تُحصَى عليه وعِلْمُ ما يُفضى إليه غدا له حُكمُ الغدِ

أبَدًا تَرَاهُ واجِدًا أَوْ عادِمًا في حَيْرَةٍ لَقْطَاتُها لم تُنْشَدِ

فالبوصيري – بوصفه إنسانا – يعيش في حيرة كبيرة، ومن ثم، فهو خائف من المصير، متوجس من الحساب، وهكذا يجب أن يكون الإنسان في هذه الحياة:

مُتَخَوِّفًا منه المصيرَ لِمَنْزِلٍ مُسْتَوْبِلِ المَرْعَى وبيل المَوْرِدِ

ما إنْ رأى الجاني به أَعْمالَه إلّا تَمنَّى أنَّه لَم يولَدِ

وهنا تبرز عقيدته الإسلامية بإيمانه يوم الحساب، فهذا هو اليوم العسير الذي يجب أن يخافه الإنسان، حيث يحاسب على كل صغيرة وكبيرة، حينما يرى أعماله ماثلة أمامه، فيتمنى وقتها أنه لم يولد. فمَن ذاك الذي ستسعفه أعماله في هذا الموقف العصيب؟ وما دام الأمر كذلك، فليس أمام الإنسان إلا أن يتعلق بحب النبي وآله؛ حيث الشفاعة والوسيلة التي لا تُرد عند الله يقول:

حسبي لهُ حب النبيِّ وآلِهِ عندَ الإلهِ وسيلةً لم تُردَدِ

من هنا، ومن هذه النظرة إلى الإنسان، كان توجه البوصيري إلى حب النبي –صلى الله عليه وسلم وآله– وانشغاله بالمدح النبوي عسى أن يجبر مسيرته في الحياة، وذلك حينما تخور عزيمته وتضعف قوته عن التزود بالعمل الصالح.

وتـزودِ التقـوى فـإن لـم تَسـتَطِع فَمِـن الصـلاةِ علـى النبـيِّ تَـزَوَّدِ

فمحبة النبي إذن هي في حقيقتها محبة الله ومحبة الخير؛ حيث التعلق بقمة الكمال الإنساني، أو بالمَثَل الأعلى، أو ما يجب أن يكون عليه الإنسان في هذه الحياة. من هنا كانت الصلاة عليه فريضة واجبة، ترفع من شأن الإنسان وتدعم موقفه أمام ربه.

وننتقل إلى جانب آخر يتصل بما سبق، وهو نقد الذات عند البوصيري.

النزعة الصوفية ومجاهدة النفس:

استغرق هذا الجانب كثيرا من شعر البوصيري، فقد تردد عنه في أكثر من موضع. والحقيقة أن البوصيري لم يكن فخورا بنفسه كعادة الشعراء الذين يفخرون بأنسابهم وأحسابهم، أو بشجاعتهم وأخلاقهم ومكارمهم، ولكنه كان عادة ما يتهم نفسه بالقصور ومقارفة الذنوب والمعاصي وضعف العزيمة، شأنه في ذلك شأن المتصوف السالك، الذي يجاهد إغواء النفس وغرائزها الظاهرة والباطنة، ويعلم أنه متى اغتر بها أو ركن إليها ساقته إلى الغرور والهلاك في الدنيا والآخرة، صحيح أنه قد يفتخر بشعره، ويعرف جيدا قدره في عالم الشعراء، ولكن ذلك جاء قليلا نسبيا إذا قيس بغيره من الشعراء.

واتهام النفس عند البوصيري – كما هو عند المتصوفة – بداية السلوك في مدارج التحقيق. وقد تكلم أهل التصوف في تهذيب النفس ومجاهدة شهواتها حتى تترقى إلى الله تعالى، واعتبروا ذلك معيارا للتصوف الحقيقي، فمن أشهر تعريفات التصوف المنسوبة إلى أئمة الصوفية "أن يميتك الحق عنك ويحييك به[10]"

ومرجعهم في ذلك تلك الخلفية القرآنية عن النفس الأمارة بالسوء التي يجب أن يستيقظ لها الإنسان ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ (يوسف: 53). وقد ذكر القرآن الكريم النفس وما زودها الله به من استعداد للغواية أو الهداية ونبه الإنسان إلى تهذيبها حيث قال: ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ (الشمس). كما حذر من الركون إليها والاغترار بها: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢ ﴾ (النجم)، والفرق واضح في المعنى بين التزكية في ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ وفي قوله: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾. فالمقصود بالأولى التطهير بالمجاهدة والتهذيب، أما التزكية الأخرى فالمقصود بها مدح النفس والفخر بها.

ولأن النفس لها درجات في التطهير والترقي؛ فقد وردت في القرآن الكريم إشارات إلى هذا الأمر، حيث ذكر الله سبحانه النفس اللوامة وأقسم بها في صدر سورة القيامة، كما ذكر النفس المطمئنة في سورة الفجر وأثنى عليها ثم وصفها بالراضية المرضية.

قال تعالى: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ ﴾ (القيامة)، وقال تعالى في سورة الفجر: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠ ﴾

ومن هذه الخلفية القرآنية انطلق الصوفية فتكلموا باستفاضة عن النفس ودرجاتها وسبل مجاهدتها: يقول ابن عطاء الله السكندري معاصر البوصيري وقرينه في مدرسة التصوف الشاذلية:

"أصل كل معصية وغفلة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا عنها، ولأن تصحب جاهلا يرضى عن نفسه خير لك من أن

تصحب عالما يرضى عن نفسه، فأي علم لعالم يرضى عن نفسه؟ وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟!"[11]

ومن هذا المنطلق برز هذا الاتجاه في شعر البوصيري وبخاصة في مدائحة النبوية قبل أن يشرع في مديح رسول الله –صلى الله عليه وسلم– نراه يكيل لنفسه الاتهامات القاسية ويعترف بالتقصير والذنب والضعف والانكسار وكأنه يتطهر أو يتوضأ قبل البدء في المدح المقدس، وقد أشار الدكتور أحمد طاهر حسنين إلى هذه النزعة في حديثه عن مقدمة البردة وسماها "بالوضوء الشعري" يقول:

"البوصيري هنا –وهو يعتزم مدح النبي –صلى الله عليه وسلم– لا يستطيع بحال أن ينفي عن نفسه صفة البشرية، فاستحضر من نفسه ابن آدم: هذا الخطاء الذي نضج فندم وتاب وثاب وأناب. ولعله خشي أن يقدم على مدح الرسول –صلى الله عليه وسلم– وهو يحمل بين جنبيه كل الآثام والأوزار العالقة به من ماضيه، فأراد أن يعترف بها منذ البداية، وليثبت في الوقت ذاته أنه إنسان تعتريه كل ما يعتري الإنسان من لحظات ضعف تزل به فتجعله أحيانا يحيد، حتى إذا خلص للمدح، جاء مدحه للرسول –صلى الله عليه وسلم– من إنسان نظيف طاهر عفيف..."[12]

فبعد أن بدأ البوصيري بردته بشكوى الغرام التي ربطها بذكر الأماكن المقدسة، انتقل –بحسن تخلص– إلى نقد الذات أو محاسبة النفس في قوله:

فإنَّ أمَّارَتِي بالسُّوءِ ما اتَّعَظَتْ مِنْ جَهْلِهَا بنذيرِ الشَّيْبِ وَالهَرَمِ

ولا أَعَدَّتْ مِنَ الفِعْلِ الجَمِيلِ قِرَى ضَيفٍ ألَمَّ بِرَأْسِي غيرَ مُحْتَشِمِ

مَنْ لِي بِرَدِّ جِماحٍ مِنْ غَوايَتِها كما يُرَدُّ جِماحُ الخَيْلِ باللُّجُمِ

فهو –هنا– يتهم نفسه بأنها لم تتعظ بتقادم الزمان وحلول المشيب فلم تستعد لمعادها ومآلها. ويعرب عن أمله في إصلاح حالها ورد جماحها.

وعلى مستوى الصياغة الفنية، يستعين البوصيري بالتصوير وبعض فنون البديع الذي يمثل ذوق العصر لإثبات فكرته. فهو يكني عن نفسه مباشرة بـ "أمارتي بالسوء" وهو تركيب قرآني يبين مدى رسوخ الخلفية القرآنية لديه والتي أشرنا إليها سابقا. ثم يصور المشيب والهرم بالنذير الذي يدق ناقوس الخطر، ويردف ذلك بصورة جمع أجزائها من الشعر القديم مضمنا شطر بيت للمتنبي؛ حيث يصور النفس الغافلة بأنها لم تحفل ولم تُعِدَّ قرى هذا الضيف "الشيب" الذي صوره سابقا بالنذير. والذي انتشر في الرأس من غير احتشام. ثم يعود ليصور نفسه بالخيل الجامحة التي تحتاج إلى لجام كي يكبحها. صور متلاحقة تتضافر جميعا لتؤكد نظرته الناقدة إلى النفس.

ومن خلال هذه النظرة الناقدة نفسها يحاول البوصيري أن يلبس ثياب الواعظ الناصح الأمين فيخاطب نفسه أو نفس أي إنسان يتلقى شعره قائلا:

فلا تَرُمْ بالمعاصِي كَسْرَ شَهْوَتِها إنَّ الطعامَ يُقَوِّي شَهْوَةَ النَّهِمِ

والنَّفْسُ كالطِّفْلُ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرِّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

فاصْرِفْ هَواها وَحاذِرْ أنْ تُوَلِّيَهُ إنَّ الهَوَى ما تَوَلَّى يُصْمِ أَوْ يَصِمِ

وَراعِها وهِيَ في الأعمالِ سائِمَةٌ وإنْ هِيَ اسْتَحَلَتِ المَرعَى فلا تُسِمِ

كَمْ حَسَّنَتْ لَذَّةً لِلْمَرْءِ قاتِلَةً مِنْ حَيْثُ لَمْ يّدْرِ أنَّ السُّمَّ في الدَّسَمِ

وَاخْشَ الدَّسائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ

واسْتَفْرِغِ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنٍ قد امْتَلأَتْ مِنَ المَحارِمِ وَالْزَمْ حِمْيَةَ النَّدَمِ

وخالِفِ النَّفْسَ والشَّيْطَانَ واعْصِهِما وإنْ هُمَا مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فاتَّهِمِ

وَلا تُطِـعْ منهمـا خَصْـمًا وَلا حَكَمًـا فأَنْـتَ تَعْـرِفُ كَيْـدَ الخَصْـمِ والحَكَـمِ

ولا يتوقف الأمر في انتقاده لنفسه عند هذا الحد، بل يتجاوز ذلك إلى أبعد مدى ممكن؛ حيث يتهمها بالنفاق في العمل فيعترف أن أقواله جوفاء، لا تؤيدها الأعمال، وأنه يأمر الناس بالبر والاستقامة وينسى نفسه، وكلها من صفات المنافقين:

أَسْـتَغْفِرُ اللهَ مِـنْ قَـوْلٍ بِـلاَ عَمَـلٍ لقـد نَـسَبْتُ بـه نَسْـلًا لِـذِي عُقُـمِ

أَمَرْتُـكَ الخَيْـرَ لكـنْ مـا ائْتَمَرْتُ بـه ومـا اسْـتَقَمْتُ فما قَـوْلِي لَـكَ اسْـتَقِمِ

والشيء نفسه يعترف به في قصيدته البائية ويعتذر عن عدم صدق توبته:

وأَنـى يهتـدي للرُّشـدِ عـاصٍ لِغـارِبِ كـلِّ مَعصِـيَةٍ ركـوبُ

يَتـوبُ لِسـانُهُ عَـنْ كـلِّ ذَنْـبٍ وَلـم يَـرَ قلبـهُ منـه يَتُـوبُ

إنه التجرد الكامل والتعري من خداع النفس التي تحاول أن توهم صاحبها بأنه على حق. فالبوصيري عندما يقدم على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مادحا يطرح كل ما لديه من ألاعيب النفس وحيلها ويلقي حمله على حبيبه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– رحمة الله للعالمين، الإنسان الكامل، الذي سيقدر موقفه تماما لأنه النموذج الكامل الخبير بكل أوصاف النفس البشرية، ثم يشفع في حاله فيصلحه الله تعالى ببركة محبته وشفاعته، وكيف لا وهو الجواد الكريم الذي لا يخيب سائله:

لجـودِ المصـطفى مُـدَّتْ يَـدانا وَمـا مُـدَّتْ لـهُ أَيْـدٍ تَخِيـبُ

وهذا النقد الذاتي اللاذع نجده في سائر مدائحه النبوية، وقد يبدأ به المدحة مباشرة كما في قصيدة البردة اللامية التي عارض بها قصيدة كعب بن زهير "بانت سعاد": "ذخر المعاد في وزن بانت سعاد".

وقد أشرنا آنفا[13] إلى أن هذه القصيدة هي التي اقتفى فيها البردة الأصلية، ولكن الشهرة اختارت بردته الميمية؛ لتكون صاحبة المقام الأول في المديح النبوي، ولم تنل قصيدة "ذخر المعاد" معشار ما نالت البردة الميمية من الشهرة.

يقول في مطلع قصيدة "ذخر المعاد":

إلى متى أنتَ باللَّذَّاتِ مَشغُولُ وَأنتَ عن كلِّ ما قَدَّمْتَ مَسؤُولُ

فِي كلِّ يَوْمٍ تُرَجِّي أن تتوب غدًا وَعَقدُ عَزمِكَ بالتَّسوِيفِ مَحْلُولُ

وهنا يبدأ المدحة مباشرة بنقد النفس واتهامها دون أن يمهد لذلك بالوقوف على الأطلال كما فعل في بردته الميمية.

ويبدأ مِدحَةً أخرى بالطريقة نفسها مخاطبا رسول الله صلى الله عليه وسلم:

وَافاك بالذنبِ العظيمِ المُذْنِبُ خَجِلًا يُعَنِّفُ نفسَهُ ويُؤَنِّبُ

لِمَ لا يشُوبُ دُمُوعَهُ بِدمائِه ذو شيبَةٍ عَوْرَاتُها مَا تُخْضَبُ

لَعِبَتْ به الدّنيا ولولا جَهْلُه ما كان في الدنيا يخوضُ ويَلعبُ

لَزِمَ التَّقَلُّبَ في مَعاصِي رَبِّهِ إذْ باتَ في نَعْمائِهِ يَتَقَلَّبُ

يستغفِرُ اللَّهَ الذُّنوبَ وقلبُه شرِهًا على أمْثالها يَتَوثَّبُ

وهو هنا في البيت الأخير يكرر ما أورده في البردة من التصريح بالنفاق ويعرض الأمر على رسول الله بوصفه مرضا يريد الشفاء منه. ويردد ذلك في موضع آخر مصرحا بذكر النفاق والرياء:

آهِ مِما جَنَيْتُ إنْ كانَ يُغْنِي أَلِفٌ مِنْ عَظيمِ ذنْبٍ وهاءُ

أرْتَجِي التَّوْبَةَ النَّصُوحَ وفِي القَلْـ ـبِ نفَاقٌ وفي اللسانِ رِياءُ

واتهام النفس بالنفاق ظاهرة صحية في تربية النفس، ورد ما يدعمها من أخبار الصحابة مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم–[14]، حيث يثبت من خلال

هذا أن الإنسان على بصيرة بعيوب نفسه، فمتى أدرك هذا بدأ طريق العلاج الناجع.

ويصل انتقاده لنفسه إلى الذروة حينما يتهمها في أخطر حالاتها، في صدق المحبة لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– أي أنه يتهم نفسه في جل عدته وعتاده، في بضاعته الوحيدة التي قدم بها مادحا لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهنا تكمن الحقيقة يقول:

يا نبيَّ الهُدَى اسْتِغَاثَةَ مَلْهو فٍ أَضَرَّتْ بحالِه الحوْبَاءُ

يَدَّعِي الحُبَّ وهْوَ يأْمُرُ بالسُّو ءِ ومَنْ لِي أنْ تَصْدُقَ الرَّغْبَاءُ

وكأنه لا يسمح لنفسه بادعاء مقام المحبة؛ لأن المحب لمن يحب مطيع، ولو أنه صدق في المحبة لصدق في القول والعمل؛ ولذلك فهو يطرح علته على طبيبه رسول الله راجيا الشفاء:

يقول:

هذه عِلَّتي وأنت طبيبي ليسَ يَخفَى عليك في القلبِ داءُ

تلك أبرز معالم انتقاداته لنفسه، وهي –كما نرى– نابعة من شعور ديني صوفي لا يكاد يفارقه في قصائد المديح النبوي.

النقد الاجتماعي:

سبقت الإشارة إلى ما كانت عليه أحوال المجتمع في هذا العصر، وهو الأمر الذي وقف منه البوصيري موقفا ناقدا بالمفهوم الواسع لمعنى النقد، وهو التفاعل مع الأحداث وإبداء الرأي فيها بشكل أو بآخر.

أول ما نلحظه في هذا السياق لدى البوصيري هو ذلك الشعر الساخر الذي يسمى بشعر الحماق أو التحامق، وهو نمط من الشعر ظهر في هذا العصر يبدو وكأنه نقد وسخرية من النفس وإظهارها في صورة كاريكاتورية ساخرة[15] في

حين أن المقصود به يكون عادة غمزا إلى المجتمع والظروف الاجتماعية القاسية التي أجبرت الشاعر على هذا التحامق، أو اضطرته إلى أن يسخر من نفسه وقد نبه بعض الباحثين إلى أهمية هذا النوع من الشعر وارتباطه بالشخصية المصرية حين يجعل الأديب من نفسه موضعا للسخرية؛ فيصور نفسه في صورة الجاهل أو الأحمق أو الأبله الذي لا يكاد يعي شيئا.[16]

ويعد هذا النمط صورة متقدمة من صور الرمزية التي نلمح أصداءها في بعض قصائد الشعر في العصر الحديث. ومن هنا يتعين على الباحث في شعر هذا العصر أن يكون مدركا لتلك الأبعاد التي تمثل ذوق العصر. حتى لا يقع في تصورات تنأى به عن الحقيقية، وقد وقع محقق ديوان البوصيري في مثل هذه التصورات بسبب ما أشرنا إليه. بالإضافة إلى استناده إلى خبر واحد أورده المقريزي نقلا عن الشهاب محمود، وهو أن البوصيري "كان على غزارة فضله ممقوتا لإطلاق لسانه في الناس بكل قبيح". فانطلاقا من هذا الخبر، فسر المحقق كثيرا من شعر البوصيري في الحماق وغيره، يقول:

"فلم يكن البوصيري مكروها من كتاب النصارى واليهود وحدهم، بل كان مكروها من الناس أجمعين حتى أقرب الناس إليه وهي زوجته" [17]

وقصيدته التي ورد فيها صراعه مع زوجته هي من قبيل شعر التحامق الذي يعرضه على الوزير بذكاء الشخصية المصرية الفكاهية التي تنتقد الوضع القائم في سخرية وخفة ظل، حتى وإن وصل الأمر إلى حد إهانة النفس. فبعد أن يقول في مطلع قصيدته تلك:

يـا أيّهـا المَـوْلَى الـوزِيرُ الّـذي أيَّامُـــــهُ طائِعَـــــةٌ أَمْـــــرَهْ

يبدأ في بث الشكوى الهزلية المملوءة بالأمثال الشعبية ولغة الشارع المصري يقول:

إليـــكَ نَشْـــكُو حالَنـــا إنّنـــا عائلـــةٌ فـــي غايَـــةِ الكَثْـــرَهْ
أُحَـدِّثُ المَـوْلَى الحَـدِيثَ الّـذي جَـرَى علـيهم بـالخيطِ وَالإِبْـرَهْ
صَـاموا مَـعَ النَّـاسِ، ولكـنَّهمْ كـانوا لِمَـنْ يُبصِـرُهم عِبْـرَهْ
إن شَـرِبُوا فـالبِئْرُ زِيـرٌ لهُـمْ مـا بَرِحَـتْ والشَّـرْبَة الجَـرَّهْ
لهُـمْ مِـنَ الخُبَّيْـزِ مَسْـلوقةٌ فـي كـلِّ يَـوْمٍ تُشْـبِهُ النَّشْـرَهْ
أَقُـول مَهمـا اجتمعـوا حَوْلهـا تَنَزَّهُـوا فـي المـاءِ والخُضْـرَهْ

ثم يصف –بالمنطق نفسه– حال أولاده وشكواهم وتأنيبهم له ليظهر ضيق حالته بصورة كوميدية:

كـم قائـلٍ يـا أبَتـا مـنهمُ قَطَعْـتَ عَنَّـا الخُبْـزَ فـي كَـرَّهْ
مـا صِـرْتَ تَأْتينـا بِفلـس وَلا بِـدِرْهَمٍ وَرِقٍ وَلا نُقـرَه
وَأنـتَ فـي خدمَـةِ قَـوْمٍ فَهَـل تَخْـدُمُهُمْ يـا أبَتـا سُـخْرَهْ
يـا خَيْبَـةَ المَسْـعَى إذا لـم يَكـن يَجْـري لنـا أَجْـرٌ وَلا أُجْـرَهْ
لقـد تَعَجَّبْـتُ لهـا فِطْنَـةً أتـى بهـا الطِّفْـلُ بـلا جَـرَّهْ
وَكيـف يَخْلُـو الطِّفْـلُ مِـنْ فِطْنَـةٍ وكـلُّ مولـودٍ عَلَـى الفِطْـرَهْ

وبعد ذلك ينتقل إلى تصوير مشهد كوميدي آخر خاص بزوجته وأختها، حين أثارت الأخيرة ثائرة الزوجة على زوجها، وهونت من شأنه وحرضتها على إيذائه، بل وضربه بآجرة على رأسه. يقول:

وَيَـوْمَ زارت أُمَّهـم أُختَهـا والأُخْـتُ فـي الغَيْـرَةِ كالضَّـرَّهْ
وَأَقْبَلَـتْ تَشْـكُو لهـا حالَهـا وَصَـبْرَها مِنـي علـى العُسْـرَهْ
قالـتْ لهـا كيـفَ تكـونُ النِّسـا كـذا مَـعَ الأزواجِ يـا غِـرَّهْ

قُـومِي اطْلبـي حَقَّـكِ منـه بِـلا تَخَلّـــفٍ منـــكِ ولا فَتْـــرَهْ
وإنْ تَـــأَبَّى فَخُـــذِي ذَقْنَـــهُ ثـــمَّ انتفيهـــا شَـــعْرَةً شَـــعْرَهْ
قالـت لهـا مـا عـادَتي هكـذا فـــإنَّ زَوْجِـــي عنـــده ضَـــجْرَهْ
أَخـــافُ إنْ كَلَّمْتُـــهُ كِلمَـــةً طَلَّقَنِـــي قالـــتْ لهـــا بَعْـــرَهْ
فَهَوَّنَـــتْ قَـــدْرِي فـــي نَفْسِـــها فجـــاءَتِ الزَّوْجَـــةُ مُحْتَـــرَّهْ
فاسْـــــتَقْبَلَتْنِي فَتَهَـــــدَّدْتُها فاسْـــتَقْبَلَتْ رَأْسِـــي بـــآجُرَّهْ
وَباتَـــتِ الفِتنَـــةُ مـــا بَينَنَـــا مِـــنْ أَوَّلِ اللَّيْـــلِ إلـــى بُكْـــرَهْ
وَمـــا رَأَى العَبْـــدُ لـــهُ مَخْلَصًـــا إِلَّا ومـــا فـــي عِينِـــهِ قَطـــرَه
فَحَـــقٌّ مَـــنْ حالَتُـــهُ هـــذِهِ أَن يَنظُـــرَ المَـــولَى لـــهُ نَظـــرَه

وواضح من القصيدة أنها مؤلفة بطريقة هزلية ساخرة الهدف منها هو ما ذكره الشاعر في البيت الأخير، من أن ينظر الوزير إلى مثل هذه الحالة المتدنية التي تمثلها أسرته بوصفها نموذجا لمجتمع بائس. وهذا النمط نراه معهودا في شعر العصر. فابن دانيال يقول في قصيدة مشابهة:

لـكَ أشـكو مـن زَوْجـة صَـيَرتني غائبًـا بَـيْنَ سـائرِ الحُضّـارِ
غَيّبتنـي عَنـيَّ مـا أطمَعَتنـي فأنـا اليـومَ مُفْكِـرٌ فـي انتظـاري
غِبـتُ، حتّـى لـو أنّهـم صَـفَعوني قلـتُ كفّـوا بـاسِهِ عـن صَـفْعِ جـاري
فَنَهـاري مـنَ الـبّلادةِ ليـلٌ فـي التساوي والليلُ مثـلُ النّهـارِ
دارَ رأسـي عـن بـابِ داري فبالله اخبِروني يا سادتي أينَ داري[18]

ويصل حد التحامق عند البوصيري إلى أن يتهم نفسه بالخور والضعف العام وعدم القدرة على معاشرة زوجته، بل وينسب إلى نفسه أشياء يأباها الشرع معبرا عن شكواه المرة من ضيق ذات اليد مع كثرة الأولاد. يقول:

وَبَلِيَّتِـي عِـرسٌ بُلِيـتُ بِمَقْتِهـا والبَغْـلُ مَمْقُـوتٌ بغَيـرِ قيـامِ

جَعَلَتْ بإِفْلاسي وَشَيْبِي حُجَّة ... إذا صِرْتُ لا خَلْفِي ولا قُدَّامِي
بَلَغَتْ مِنَ الكِبَرِ العِتِيَّ ونُكِّسَتْ ... فِي الخَلْقِ وَهْيَ صَبِيَّةُ الأَرحامِ
إنْ زُرْتُها في العامِ يَوْمًا أَنْتَجَتْ ... وَأَتَتْ لِسِتَّةِ أَشْهُرُ بِغُلامِ
وَأَظُنُّ أَنَّهُم لِعُظْمِ بَلِيَّتِي ... حَمَلَتْ بِهِمْ لاشَكَّ في الأحلامِ
أو هذه الأولادُ جادتْ كلها ... من فعل شيخ ليس بالقوامِ
أَوَ كُلَّ ما حَلِمَتْ به حَمَلَتْ به ... مَنْ لِي بِأَنَّ الناسَ غيرُ نيامِ
يا لَيْتَها كَانَتْ عَقِيمًا آيسًا ... أَوَ لَيْتَنِي مِنْ جُمْلَةِ الخُدَّامِ
أَوَ لَيْتَنِي مِنْ قَبْلِ تَزْوِيجي بها ... لو كنتُ بِعْت حلالها بِحَرامِ
كيفَ الخَلاصُ مِنَ البَنينَ ومِنهُمُ ... قومُ وَرايَ وَآخَرُونَ أمامِي

وكأن سوء الحالة الاجتماعية أخرجه عن أطوار عقله وحكمته فانزلق لسانه بكلمات يعف عنها العاقل الحكيم.

ولذلك نجده في خاتمة هذه القصيدة يعود شيئا فشيئا إلى رشده فيفصح عن مشكلته بصورة أكثر تعقلا:

مَنْ كانَ مِثْلِي لِلْعيالِ فإِنَّهُ ... بَعْلُ الأَرامِلِ أَوْ أَبُو الأَيْتامِ
أَصْبَحْتُ مِنْ حَمْلِي هُمُومَهُمُ عَلَى ... هَرَمِي كأني حامِلُ الأَهْرامِ

وهكذا تطل البيئة المصرية واضحة في قصيدته حتى نهاية المطاف. ويلحظ القارئ في أواخر هذه القصيدة أن البوصيري – مع كل ما ذكره– يصرح للممدوح بأنه لا يطمع في الدينار ولا الدرهم، بل يريد منه الإعزاز والإكرام. يقول:

إني امْرُؤٌ ما مَدَّ عينَ خَلاعَتي ... طَمْعٌ لِدينارٍ وَلا دِرْهامِ
وَإذا مَدَحْتُ الأَكْرَمِينَ مَدَحْتُهُمْ ... بِجَوائِزِ الإعْزازِ وَالإكْرامِ

وإذا تفحصنا قوله "عين الخلاعة" فقد ندرك أنه كان في هذه القصيدة في حالة "خلاعة" أو "تحامق" وليس بالضرورة أن يكون مقررا لوقائع حقيقية بصورة طبيعية.

أما في شعره الجاد فإننا نلمح صدقا تعبيريا وبخاصة حينما يتكلم عن طبيعة شخصيته الحقيقية ومكانته بين الناس من غير مبالغة كقوله:

إلى الله أَشكو إنَّ صَفْوَ مَوَدَّتِي عَلَى كَدَرِ الأيَّامِ لا تَتَكَدَّرُ
وإنْ أَظْهَرَ الأَصْحَابُ ما ليسَ عِنْدَهُم فإنّي بما عِنْدِي مِنَ الوُدِّ مُظهِرُ
وإن غُرِسَت في أرضِ قَلْبِي مَحَبَّةٌ فليسَ بِبُغْضٍ آخِرَ الدَّهْرِ تُثْمِرُ
وَيَمْلِكُنِي خُلْقٌ عَلَى السُّخْطِ والرِّضا جَمِيلٌ كمِثْلِ البُرْدِ يُطْوَى ويُنْشَرُ
وقَلْبٌ كمِثْلِ البحرِ يَعْلُو عُبابُه ويَزْخَرُ مِنْ غَيْظٍ ولا يَتَغَيَّرُ
إذا سُئِلَ الإبْرِيزُ جاشَ لُعابُهُ ويَصْفُو بما يَطفو عليه ويَظْهَرُ
وما خُلُقِي مَدْحُ اللَّئِيمِ وَإنْ عَلَتْ بِهِ رُتَبٌ لا أَنَّنِي مُتَكَبِّرُ
وَلا أَبْتَغِي الدُّنيا ولا عَرَضًا بها بَمَدْحِي فَإنّي بِالقَنَاعَةِ مُكْثِرُ
لِيَعْلَمَ أَغْنَى العالَمِينَ بِأَنَّهُ إلَى كَلِمِي مِنّي لِدُنْياهُ أَفْقَرُ
وَأَبْسُطُ وَجْهِي حينَ يَقْطُبُ وَجهَهُ فيَحْسَبُ أنّي موسِرٌ وهْوَ مُعْسِرُ
أَأَنظُمُ هذا الدُّرَّ في جِيدِ جَاهِلٍ وأَظلِمُهُ أنّي إذن لَمُبَذِّرُ
وعِنْدِي كَلامٌ واجِبٌ أَنْ أَقُولَهُ فلا تَسْأَمُوا مَمَّا أَقولُ وتَسْخَرُوا
وَلَمْ تَرَنِي لِلمالِ بِالمَدْحِ مُؤْثِرًا ولكِنّني لِلوُدِّ بالمَدْحِ مُؤْثِرُ

فهو يصف نفسه بالصفاء والوفاء ومحبة الناس، وعدم التكبر عليهم، والقناعة بما في يديه. والعجيب أنه يقول هذه الأبيات في سياق مدح أمير من الأمراء ويؤكد له أنه (أي الأمير) أفقر إلى شعره منه إلى ماله:

لِيَعْلَمَ أَغْنَى العالَمِينَ بِأَنَّهُ إلَى كَلِمِي مِنّي لِدُنْياهُ أَفْقَرُ

من هنا نستطيع أن نقول إن البوصيري لم يكن مكروها من الناس، بل كان إنسانا عاديا يعيش في مجتمع يزخر بالمتناقضات، ولكنه كان يتمتع بقدرة فائقة على التعبير الساخر والرؤية الناقدة. مما جعل شعره كتابا جامعا لما في عصره من إيجابيات وسلبيات.

البوصيري والفساد الوظيفي:

يعد البوصيري نموذجا فريدا للشاعر الذي عانى مشاق الوظائف الحكومية في عصره، حيث اضطرته نشأته الكادحة في المجتمع المصري آنذاك أن يسعى لطلب الرزق، فزاول منذ صغره كتابة الألواح التي توضع شواهد على القبور، ولما تفتحت فيه موهبة الشعر بدأ يتقرب إلى الوزراء والأمراء ويمدحهم، ولكن المقابل في هذا العصر لم يكن يكفل للشاعر المادح أن يحيا حياة كريمة كما كان عليه الحال في العصر العباسي، مما جعله يبحث عن أبواب أخرى للرزق يستطيع من خلالها أن يكفل أسرته الكبيرة، فاشتغل في مهنة الكتابة، إلى جانب إبداعه الشعر يقول:

ما سوى حرفةِ الكتابةِ لي مِن وطرٍ أبتغي ولا إربه

والشعرُ ميزانُهُ أُقَوِّمُهُ وليس تنقامُ منهُ لي حُدبه

وواضح أنه غير مقتنع بما يدره الشعر من عائد في هذا العصر حيث لا يقيم أودا ولا يروي ظمأ.

ومهنة الكتابة التي اشتغل بها البوصيري وظيفة تقوم على معرفة القراءة والكتابة والحساب، وأهم ما يميز صاحبها الدقة في الحساب. فالكُتَّاب في هذا العصر كانوا يديرون حسابات جميع المصالح الاقتصادية كالأراضي الزراعية والأوقاف وغيرها.

وقد ذكر المقريزي أن "البوصيري كان يعاني صناعة الكتابة الديوانية، ويتصرف في المباشرات، وباشر في الشرقية ببلبيس، ورمى المباشرين بأوابد.."[19] وهو يشير هنا إلى تلك القصيدة التي هجا بها البوصيري طوائف المستخدمين ورماهم فيها بالخيانة والسلب والنهب والتلاعب بالمال العام، وهي قصيدة نونية صاغها على وزن معلقة عمرو بن كلثوم، وضمن أبياتها كثيرا من تراكيبها يقول فيها:

ثَكِلْتُ طوائِفَ المُسْتَخْدَمِينا فَلَمْ أَرَ فِيهِمُ رَجُلًا أَمِينا
فَخُذْ أَخْبَارَهُمْ مَنِّي شِفاهًا وَأَنْظِرْنِي لأُخْبِرُكَ اليَقِينا
فَقَدْ عَاشَرْتُهُمْ وَلَبِثْتُ فِيهِمْ مَعَ التَّجْرِيبِ مِنْ عُمْرِي سِنينا
حَوَتْ بُلْبُيْسُ طائِفَةً لُصُوصًا عَدَلْتُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ مِئِينا
فُرَيْجِي والصَّفِيَّ وَصاحِبَيْهِ أَبَا يَقْطُونَ والنَّشْوَ السَّمِينا
فَكُتَّابُ الشَّمالِ هُمُ جَمِيعًا فلا صَحِبَتْ شِمالُهُمُ اليَمِينا
وَقَدْ سَرقُوا الْغِلالَ وما عَلِمْنا كما سَرَقَتْ بَنُو سَيْفِ الجُرُونا
وَكَيفَ يُلامُ فُسَّاقُ النَّصارَى إذَا خانَتْ عُدُولُ المُسْلِمينا
وَجُلُّ النَّاسِ خُوَّانٌ وَلكِنْ أُناسٌ مِنْهُمْ لا يَسْتُرُونا
وَلَوْلا ذَاكَ مَا لَبِسُوا حَرِيرًا ولا شَرِبُوا خُمُورَ الأَنْدَرِينا
ولا رَبُّوا مِنَ الْمُرْدانِ قَوْمًا كَأَغْصانٍ يَقُمْنَ وَيَنْحَنِينا
وَقَدْ طَلَعَتْ لِبَعْضِهِمُ ذُقُونٌ ولكِنْ بَعْدَ ما نَتَفُوا ذُقونا
بِأَيِّ أَمَانَةٍ وبِأَيِّ ضَبْطٍ أَرُدُّ عَنِ الخِيانَةِ فاسْقِينا
ولا كِيسًا وَضُعْتُ عَلَيْهِ شَمْعًا ولا بَيتًا وَضَعْتُ عَلَيْهِ طِينا
وَأَقْلامُ الجَماعَةِ جائِلاتٌ كأَسْيافٍ بأَيْدِي لاعِبِينا

وتحمل هذه القصيدة كثيرا من مظاهر الحياة الوظيفية في ذلك العصر وما كان يلجأ إليه الموظفون من حيل ورشاوى وغير ذلك لكسب المال. وواضح أن البوصيري لم يكن سلبيا إزاء ما يرى وما يسمع، بل كان بشخصيته الناقدة متفاعلا مع كل هذه المواقف وكأنه بشعره القوي يمثل الإعلام الفاضح الذي لا يسكت على منكر.

ولا يقف النقد عند هذا فحسب، بل يتوجه إلى الوزير المسئول، ويتهمه بالغفلة، ويأخذ عليه في بعض قراراته غير العادلة، فيقول:

أَمَولاَنا الوزيرَ غَفَلْتَ عَمَّا ... يَهُمُّ مِنَ الكِلابِ الخَائِنِينا

أَتُطْلِقُ جامِكِيَّاتٍ لِقومٍ ... وتُنْفِقُ فَيء قَومٍ آخَرِينا

ثم ينصحه ألا يهمل أمور الجند الذين يجاهدون في سبيل الله بسبب إنفاقه على من سواهم من هؤلاء الكتاب الخائنين:

فلا تُهْملْ أُمورَ المُلْكِ حَتَّى ... يَذِّلَّ الجُنْدُ لِلْمُتَعَمِّمِينا

فَهَلْ مَلَكُوا بأقلامٍ قِلاعًا ... وهَلْ فَتَحُوا بأَوْراقٍ حُصُونا

وَمَنْ قَتَلَ الفَرَنْجَ أشَدَّ قَتْلٍ ... وَمَنْ أَسَرَ الفَرَنْسِيس اللَّعِينا

ومنْ خاضَ الهواجِرَ وَهُوَ ظامٍ ... إلَى أَنْ أَوْرَثَ التَّتَرَ المَنُونا

ولاقُوا المَوْتَ دُونَ حريمِ مِصْرٍ ... وَصانُوا المَالَ مِنهُمْ وَالبَنِينا

وَلَمْ تُؤْخَذْ كما أُخِذَتْ دِمَشْقٌ ... ولا حُصِرَتْ كَميًّا فارقِينا

وَمَا أَحَدٌ أَحَقَّ بأَخْذِ مَالٍ ... مِنَ الأَتْرَاكِ وَالمُتَجَنِّدِينا

وَمَنْ لَمْ يَدَّخِرْ فَرَساً جَوَادًا ... لِواَقِعَةٍ وَلا سَيْفًا ثَمِينا

فَبَعْدَ المَوْتِ قُلْ لِي أَيِّ شَيء ... لَهُ فِي بَيْتِ مَالِ المُسْلِمِينا

ونلحظ هنا سيادة الفكر الجهادي الذي كان يتبناه المماليك، فالبوصيري يخاطب الوزير من هذا المنطلق الذي يُرضي أمراء المماليك من ناحية، ويرضي

الفكر الجهادي الشرعي السائد من ناحية أخرى حيث استقر في أذهان الناس أن الخراج والأوقاف والضرائب وغير ذلك مما يؤخذ من زراعتهم وإنتاجهم يجب أن ينفق في حماية البلاد والجهاد في سبيل الله، ولا ضير من أن يكون ذلك لهؤلاء الأتراك الغرباء. طالما أنهم مسلمون مجاهدون ثم يعرج البوصيري بعد ذلك بطريقته الناقدة على فئة المعممين من رجال الشرع الذين لم يقدروا مكانهم الشرعي فاحتالوا لجمع المال بشتى الوسائل:

إذَا أُمَنَاؤُنَـــــا قَبِلُــــوا الهَـــدَايا وَصَـــارُوا يَتْجَـــرُونَ وَيَزْرَعُونـــا
فلِـمْ لا شــاطَرُوا فيمــا اسْـتَفادوا كمــا كــانَ الصَّــحابَةُ يَفْعَلُونــا
وَكَلُّهُـــمُ عَلَـــى مَـــالِ الرَّعايـــا وَمـــالِ رُعـــاتِهِمْ يتَحيَّلُونـــا
تَحَيَّلَـــتِ القُضـــاةُ فَخـــانَ كُـــلٌّ أَماَنَتَـــهُ وَسَـــمَّوْهُ الأمِينـــا
وَكَـمْ جَعَـلَ الْفَقِيـهُ الْعَـدْلَ ظُلْمًـا وَصَـيَّرَ بَـاطِلًا حَـقًّا مُبِينـا
ومـا أَخْشَـى عَلَـى أَمْـوَالِ مِصْـرٍ سِـوَى مِـنْ مَعْشَـرٍ يَتَأَوَّلُونـا

فهو يشير هنا إلى ما يلجأ إليه بعض علماء الشرع لتأويل مخالفاتهم وتبرير أعمالهم غير المشروعة من أجل الحصول على المال.

ويُلحظ هنا ظهور الجانب الوطني لدى البوصيري وذلك في قوله: "أموال مصر" وقبلها "حريم مصر" فهذه الروح المصرية تعد ظاهرة واضحة في شعر البوصيري في وقت لم تتبلور فيه هذه النزعة الوطنية بمفهومها الذي ندركه الآن؛ حيث كان الانتماء للدين أكثر ظهورا من الانتماء للوطن.

وامتدادا لهذه الروح الوطنية نراه يعرض لنا فكر الطوائف المختلفة وصراعها على نهب أموال مصر ويعيب عليهم أنهم ينطلقون من نزعة طائفية لا وطنية:

يَقُـولُ المُسْـلمُونَ لَنـا حُقـوقٌ بهـا ولَــنَحْنُ أَوْلَــى الآخِــذِينا
وَقَـالَ الْقِـبْطُ إِنَّهـمُ بِمِصْـرَ الْـــ مُلُــوكُ ومَــنْ سِــوَاهُمْ غَاصِــبُونا

وَحَلَّلَتِ الْيَهُودُ بِحِفْظِ سَبْتٍ لَهُمْ مَالَ الطَّوَائِفِ أَجْمَعِينا
فلا تَقْبَلْ مِنَ النُّوَّابِ عُذْرًا ولا النُّظَّارِ فِيما يُهْمِلُونا

فالشاعر هنا يبدو حريصا على المصلحة العامة دون اتهام طائفة بعينها، هذا على الرغم من تلك المعارك الجدلية الطويلة التي خاضها مع اليهود والنصارى، والتي سنعرض لها لاحقا.

ثم يعرض البوصيري في هذه القصيدة بعمال دار الولاية ويحرض الوزير عليهم موظفا الأسلوب القرآني والأعلام القرآنية في شعره:

وفي دَارِ الْوِلايَةِ أَيُّ نَهْبٍ فَلَيْتَكَ لَوْ نَهَبْتَ النَّاهِبِينا
وما فِرْعَوْنُ فيها غَيْرَ مُوسَى يَسُومُ المُسْلِمينَ أَذىً وهُونا
إذَا أَلْقَى بِها مُوسى عَصاهُ تَلَقَّفَتِ الْقَوَافِلَ والسَّفِينا
وَفِيها عُصْبَةٌ لا خَيرَ فِيهِمْ عَلَى كُلِّ الوَرَى يَتَعَصَّبُونا
وَشاهِدُهُمْ إذَا اتُّهِمُوا يُؤَدِّي عَنِ الْكُلِّ الشَّهَادَةَ وَاليَمِينا
وَمَنْ يَسْتَعْطِ بِالأَقْلامِ رِزْقًا تجِدْهُ عَلَى أمانَتِهِ خئونا
وَلَسْتُ مُبَرِّئًا كُتَّابَ دَرْجٍ إذَا اتُّهِمَتْ لَدَيَّ النَّاسِخُونا
فَهاكَ قَصِيدَةً في السِّرِّ مِنِّي حَوَتْ مِنْ كُلِّ وَاقِعَةٍ فُنُونا

ونلحظ أن البيت الذي ختم به قصيدته قد ذكر فيه أهمية هذه القصيدة وما اشتملت عليه من وقائع عديدة ومتنوعة، فهي وثيقة لما كان عليه واقع الكتاب والموظفين والمباشرين في هذا العصر[20].

وهذا النمط من الشعر الناصح الناقد نجده أيضا في قصيدته الأخرى التي هجا فيها عامل أسوان، ووجه كلامه فيها إلى نائب السلطان أو الوزير المسئول، والتي يقول فيها:

انْظُـرْ بِحَقِّـكَ فـي أَمْـرِ الدَّواوِيـنِ فالكـلُّ قـد غيَّـرُوا وضْـعَ القَـوانينِ
لَمْ يَبْقَ شَيءٌ عَلَى ما كُنْتَ تَعْهَدُهُ إلاَّ تَغـيَّرَ مِـنْ عـالٍ إلَـى دُونِ

وهي قصيدة طويلة تكاد تكون تكرارا للمعاني السابقة.

نقد وظيفة المحتسب:

عرضت وظيفة "المحتسب" على البوصيري فاعتذر عنها، وليس هناك مصدر تاريخي يذكر ذلك بطريقة مباشرة غير أننا عرفنا ذلك من خلال شعره، ففي ديوانه قصيدة مطلعها:

لا تظلمـوني وتظلمـوا الحسـبة فلـيس بينـي وبينهـا نسـبة

يذكر فيها بغضه لهذه الوظيفة، ويعلن رفضه لممارستها، وكذلك يصف بغض الناس لشخصية المحتسب ويذكر جملة من الأسباب التي تفسر هذا البغض. ولعل في هذا نقدا اجتماعيا لطريقة الرقابة على الناس التي كانت سائدة في عصره. يقول في هذه القصيدة:

لا تَظلِمـوني وَتَظلِمـوا الحِسْـبَه فلـيسَ بينـي وَبينهـا نِسْـبَه
غيْـرِي فـي البيـعِ وَالشِّـرَا دَرِبٌ وَلـيس فـي الحـالتيْنِ لـي دُرْبَـه
فهـو أبـو حَبَّـةٍ كمـا ذَكَـرُوا لا يَتَغَاضَـى للنـاسِ فـي حَبـهْ
وَقـامَ فـي قومِـهِ لِيُنْـذِرَهُم فهْـوَ بإنْـذَارِ قومِـهِ أشْـبَهْ
والنـاسُ كـالزَّرْعِ فـي منابِتِـهِ هـذا لـه تُرْبَـةٌ وَذَا تُرْبَـهْ
تـاللَّهِ لا يَرْضَـى فضـلي وَلا أدَبـي وَلا طِبـاعِي فـي هـذهِ السُّـبَّهْ
أَجْلِـسُ والنـاسُ يُهْرَعُـونَ إلَـى فِعْلِـي فـي السُّوقِ عُصْبَةً عُصْبَهْ
أُوجِـعُ زَيْـدًا ضَـرْبًا وَأُشْـبِعُهُ سَـبًّا كَـأني مُـرَقِّصُ الدُّبَّـهْ
ويُكسِـبُ الغـيْظُ مُقْلَتَـيَّ وخَـد ديَّ احْمِـرارًا كزامـر القِرْبَـهْ
وآمُـرُ النـاسَ بالصَّـلاحِ ولا أُصْـلِحُ نَفْسِـي حُرِمْتُهـا حِسْـبَهْ

فهو يبرر أسباب اعتذاره عن هذه الوظيفة بعدم توافر الصفة الأساسية التي يجب أن تكون في المحتسب وهي الدربة في البيع والشراء، ثم يعرج على الأمور الأخرى التي لا يحبها في شخصية المحتسب مستعينا بألفاظ أطلقها العامة على المحتسب مثل "أبو حبة" حيث لا يتغاضى للناس عن شيء عفوا وتسامحا، فهو كنذير السوء. يرفع صوته بالسب والشتم ويضرب الناس بالدرة، ثم يذكر ما حدث للمحتسب السابق الذي سعد الناس بعزله، ثم يردف بقوله:

فالحمـــــدُ للَّهِ فاحْمـــــدُوهُ مَعِـــــي على خَلاصِـي مِـنْ هـذهِ النِّسْـبَهْ

الاتجاه الناقد في مديح رجال الدولة:

قد يلتبس الأمر حينما نجمع بين الاتجاه الناقد وشعر المديح، فكل منهما يشي بدلالة مخالفة للآخر، ولكن النظرة المتأنية لمعاني المديح وسياقاته عند البوصيري تكشف عن آراء وتوجهات ناقدة تفهم بصورة غير مباشرة، لتصل إلى الممدوح في قالب فني يرضي ذوق العصر من ناحية، ويؤمن المادح من غوائل ذلك الممدوح من ناحية أخرى.

والعصر الذي كان يعيشه البوصيري عصر خلافة عباسية صورية، وعصر سلطة مملوكية فعلية على نحو ما أشرنا سابقا، ولذلك فإن الخليفة العباسي الموجود بالقاهرة –الذي يفترض أنه السلطة الروحية العليا– لم ينل حظا ملحوظا من مدائح الشعراء، فمنذ سقوط بغداد لم تعد للخلافة هيبتها وجلالها، وكل ما فعله الظاهر بيبرس وغيره من المماليك أنهم جعلوا الخليفة العباسي في القاهرة واجهة شرعية يستمدون منها زعامتهم وسلطانهم على العالم الإسلامي، وحرصوا في الوقت نفسه على حَجْب الخليفة وتقويض نفوذه إلى أضيق حد ممكن. في حين أعطوا لمن تحتهم من الأمراء والوزراء السلطة الكفيلة بتثبيت دعائم السلطان بين الناس، وقد يصل الأمر إلى أن يشتهر الوزير أو نائب السلطان أو

الأمير بين الناس شهرة تفوق السلطان نفسه، ويكون ذلك غالبا في حالتين: إما بالأعمال الجادة والإصلاحات النافعة ومعاملة الناس بالحسنى، أو بالقهر والاستبداد وإرهاق كاهل الناس بالضرب أو بغيرها لإرضاء السلطان. وفي كلا الحالتين تظل للسلطان هيبته بين الناس وإن عظمت شهرة وزرائه وأمرائه.

نظرته فيما يجب أن تكون عليه الخلافة:

سبقت الإشارة إلى أن البوصيري قد عاش طرفا من حياته في الدولة الأيوبية، والطرف الآخر في عهد دولة المماليك، واعتقاده في الخلافة والولاية اعتقاد أهل السنة، ولكن هواه وميوله كانت مع آل البيت، واعتقاد أهل السنة لا يمنع أن تكون الخلافة في آل البيت، ذلك لأنهم من قريش التي يرون أن تكون الخلافة فيها. كما أن الأسرة العباسية التي اعتلت عرش الخلافة الإسلامية السنية ما يقرب من ألف سنة، كانت أسرة هاشمية شريفة.

ولعل قرب العهد من زوال الدولة الفاطمية الشيعية بمصر كان له أثر في كثير من الناس وقتها. والواقع أن الدولة الفاطمية تركت أثرا واضحا في الشعب المصري، صحيح أنها لم تجبر الشعب على الدخول في مذهبها الشيعي، ولكنها استطاعت أن تقرب المسافة بين المذاهب وتشجع الناس على حب آل البيت والاحتفال بموالدهم، والإشادة بمناقبهم، فأزالت بذلك تلك الحدود المصطنعة من التعصب بين الشيعة والسنة، فخرج الشعب المصري من العصر الفاطمي بعقيدته السنية لم تتبدل، ولكنه أضاف إلى الشخصية المصرية خصيصة احترام المذهب المخالف، بل والتأثر بما فيه من مزايا. وهذا ما نراه باقيا حتى اليوم في طبيعة شعب مصر وعلمائها، وهي الطبيعة التي لا تعرف التشدد ولا التعصب، وإن عرض عارض بغير هذا فما هو إلا أمر مستحدث نتيجة تغيرات معاصرة لا مجال لمناقشتها في هذا البحث.

أما البوصيري فكانت حالته أكثر خصوصية من هذا الحكم العام، فلقد عاش عصرا تالية لعصر الدولة الفاطمية، وهو العصر الأيوبي الذي شهد من بدايته تعمدا لمحو الآثار الفاطمية، وتلاه عصر المماليك الذين خرجوا من عباءة الأيوبيين، فساروا – وإن خف الوطء – على نهجهم، خاصة وأن الدولتين الأخيرتين اعتمدتا الخلافة العباسية مستندا شرعيا لهما. وكما هو معروف في مصادر التاريخ تعرضت الأسرة الفاطمية للعداء الشديد من الدولة العباسية التي حاولت بشتى الوسائل التشكيك في صحة انتسابهم لآل البيت، وجمعت علماء وأشراف بغداد ليوقعوا على وثيقة بهذا المعنى، وأوعزت إلى دولة السلاجقة الموالية بالقضاء عليها، حتى تم لهم ما أرادوا، حينما ضعفت الخلافة الفاطمية واستجارت بالسلاجقة أنفسهم وقوادهم الأيوبيين في آخر عهدها، لصد الغارات الصليبية، ودرء الفتن الداخلية. فسنحت الفرصة المرتقبة للاستيلاء على مصر، وتنحية الأسرة الفاطمية، وإرضاء الخليفة العباسي في بغداد، الذي طالما انتظر هذه الضربة القاصمة للخلافة التي نغصت مضاجه؛ حيث حكمت العالم الإسلامي بقوة واقتدار ما يقارب قرنين من الزمان، لدرجة أنه في وقت من الأوقات دُعيَ للخليفة الفاطمي على منابر بغداد نفسها.

ثم كان ما كان من التنكيل والاعتقال وعوامل التطهير العرقي للأسرة الفاطمية في مصر. المهم أن هذه الأمور لم تكن ببعيدة عن عصر البوصيري، ويبدو أن الكلام فيها كان محظورا، ولم يسمح للناس إلا بالمعنى العام لحب آل البيت بوصفه مبدأ إسلاميا تعترف به كل المذاهب وعلى رأسها أهل السُنَّة، بشرط ألا يتعدى ذلك إلى الكلام في حقوق الخلافة الحالية والسلطة القائمة، وإلا ستكون العاقبة غير حميدة.

وواضح أن البوصيري كان يدرك هذا جيدا، ولكن حبه لآل البيت كان يطلق لسانه للإفصاح عن أشياء قد تمثل خطوطا حمراء في هذا العصر، ثم لا يلبث أن يتدارك الأمر، ويُعدِّل مسار القول.

ولا يجب أن يُفهم من هذا أن البوصيري كان منتسبا إلى أي مذهب من مذاهب الشيعة، فهو فقيه سنيّ صوفي، يعترف بذلك، بل ويتحمس له، فقد ذكر الصحابة في شعره بكل إجلال واحترام، مدح الأربعة الخلفاء الراشدين بعد مديحه لرسول الله مباشرة في الهمزية وغيرها من القصائد، وذكر العشرة المبشرين بالجنة، كل ما نلاحظه هو انتماؤه لآل البيت حبا ومودة واحتراما. ففي قصيدته الهمزية نراه يذكر الإمام علي بن أبي طالب عقب أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين ويعترف بمودته والولاء له بقوله:

وَعَلِيٍّ صِنْوِ النبيّ وَمَنْ دِينُ فُؤَادِي وِدادُهُ وَالوَلاءُ

فعلى الرغم من ذكره في الترتيب الرابع بعد الخلفاء الثلاثة إلا أنه صرح بأن دين فؤاده هو المودة والولاء له.

وللبوصيري قصيدة قالها في مشهد السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور رضي الله عنهما، التي اختارت مصر مقرا لها منذ القرن الثاني الهجري، فعاشت فيها، وتوفيت فيها، وكانت معاصرة للإمام الشافعي –رضي الله عنه– وكلاهما مدفون بأرض مصر.

هذه القصيدة التي قالها البوصيري في السيدة نفيسة تضمنت كثيرا من رؤية البوصيري لما يجب أن تكون عليه الخلافة الإسلامية، وتفضيله لآل البيت على من سواهم. يقول في مطلعها:

جَنابُكِ منه تُسْتَفَادُ الفَوائدُ وللناسِ بالإحسَانِ منكِ عوائدُ

فَطُوبَى لِمنَ يَسْعَى لِمَشْهَدِكِ الذي تكَادُ إلى مَغْنَاهُ تَسْعَى المشَاهِدُ

إذَا يمَّمَتْهُ القاصِدُونَ تَيَسَّرَتْ ... عليهمْ وإن لم يسألوكِ المقَاصدُ

ومن أبياتها التي تشير إلى رؤية البوصيري في الخلافة قوله:

سَلِيلَةَ خَيْرِ العالَمِينَ نَفيسَة ... سَمَتْ بِكِ أعراقٌ وطابَتْ محائِدُ
إذا جحدَتْ شمسُ النَّهارِ ضِياءها ... فَفَضْلُكِ لم يَجْحَدهُ فِي الناسِ جاحِدُ
بآبائِكِ الأطهارِ زُيِّنَتِ العُلا ... فحَبَّاتُ عِقْدِ المَجْدِ منهم فَرائِدُ
وَرِثْتِ صفاتِ المصطفى وَعلومَهُ ... فَفضْلُكُمَا لولا النُّبُوَّةُ واحِدُ
فلم يَنْبَسِطْ إلَّا بِعِلْمِكِ عالم ... وَلم يَنْقَبِضْ إلَّا بِزُهْدِكِ زاهِدُ
مَعارِفُ ما يَنْفَكُّ يفضي بِسِرِّها ... إلى ماجِدٍ مِنْ آلِ أحْمَدَ ماجِدُ
يُضيءُ مُحيَّاهُ كأنَّ ثَنَاءَهُ ... إلى الصُّبْحِ سارٍ أوْ إلى النَّجْمِ صاعدُ
إذا ما مَضى منهم إمامُ هُدىً أتى ... إمامُ هُدىً يَدْعُو إلى اللَّهِ رَاشِدُ
تَبَلَّجَ مِنْ نورِ النُّبُوَّةِ وَجْهُهُ ... فمنه عليه للعُيُون شَوَاهِدُ
وفاضَتْ بِحَارُ العِلْمِ مِنْ قَطْرِ سُحْبِها ... عليه فطابَتْ لِلْورادِ المَوارِدُ
رَأى زِينَةَ الدُّنيا غُرورًا فعافَها ... فليس له إلا عَلَى الفضلِ حاسدُ
كأنَّ المعالى الآهلات بِغَيْرِهِ ... رُبوعٌ خَلَتْ مِنْ أهلِها وَمَعاهِدُ
إِذَا ذُكِرَتْ أعمالُه وَعُلومُه ... أقَرَّ لهَا زَيْدٌ وَبَكْرٌ وَخالدُ
وَما يَسْتَوِي في الفضلِ حالٍ وَعاطِلٌ ... وَلا قاعِدٌ يومَ الوغَى وَمجاهِدُ
فَقُلْ لِبَنِي الزَّهْراء والقَوْلُ قُرْبَةٌ ... يَكِلُّ لسانٌ فيهمُ أوْ حصائدُ
أحَبَّكُمُ قلبي فأصبحَ مَنْطِقِي ... يُجادِلُ عنكم حِسْبَةً وَيُجالدُ
وَهل حُبُّكُمْ لِلنَّاسِ إلَّا عَقِيدَةٌ ... عَلَى أُسِّهَا في اللَّهِ تُبْنَى القَواعِدُ
وإنَّ اعتقادًا خاليًا مِنْ مَحَبَّةٍ ... وَوُدٍّ لكمْ آلَ النبيِّ لفاسِدُ
وإنِّي لأَرْجُو أن سَيُلْحِقني بِكُمْ ... وَلائي فَيُدْنُو المَطْلَبُ المُتَبَاعِدُ

فمن يمعن النظر في مضمون هذه القصيدة يستطيع أن يخلص إلى مدى الحب الكبير الذي يكنه البوصيري لآل البيت، واعتقاده في أحقيتهم بالخلافة. ولكي يبعد الظنون عن اتهامه بموالاة الدولة الفاطمية الزائلة، والتي درج علماء الدين من أهل السنة منذ عهد الخلافة العباسية في بغداد وحتى عصره على رميها بادعاء النسب الشريف، والعقائد الفاسدة، والباطنية وغير ذلك من المنكرات، لكي يبعد عن نفسه هذا الاتهام، حاول البوصيري في القصيدة أن يوهم القارئ بأنه يقصد الفتنة التي قامت بعد انتقال النبي –صلى الله عليه وسلم– مباشرة، وليس العصر الذي يعيش فيه. يقول:

فيا فِتْنَةً بعْدَ النبيّ بها غَدا	**يُهدمُ إيمانٌ وتُبْنَى مساجدُ**
وما فتِنَتْ بعدَ ابنِ عِمْرَان قَوْمُهُ	**بما عَبَدُوا إلَّا لِيَهْلِكَ عَابِدُ**
كذاكَ أَرادَ اللَّهُ منكُمْ ومِنْهمُ	**وليس له فيما يُريدُ مُعانِدُ**

فهو يذكر هنا الفتنة الكبرى ذكرا عارضا دون تفصيل، لكي يوهم بأنه يقصد التشريد الأول، أيام معاوية ويزيد، ولا يقصد ذلك التشريد الأخير للفاطميين الذي شارك فيه الأيوبيون ومماليكهم الذين أصبحوا حكاما وسلاطين في عصره.

هذه هي نظرة البوصيري للخلافة الإسلامية كما تبدو من خلال شعره، ويظهر فيها تأثره الواضح بالفكر الشيعي دون الانتماء إليه.

<u>مديحه للسلطان:</u>

لم يكن أغلب سلاطين المماليك يتقنون اللسان العربي، يقول المقريزي في وصف السلطان المنصور قلاوون: "وكان جميل الصورة مهيبا، عريض المنكبين، طويل العنق، فصيحا بلغة الترك والقبجاق، قليل المعرفة بالعربية"[21] ولعل قلة معرفتهم باللغة العربية كانت سببا في أن ينصبوا وزراءهم من العلماء

النابهيين الذين يسدون هذه الثغرة في هيبة السلطة، ويكونون وسيلة اتصال بين الحاكم والمحكوم.

من هنا كانت معظم مدائح البوصيري في الوزراء والأمراء الذين يفهمون شعره ويقدرون مكانته، مع قوة نفوذهم في إدارة أمور البلاد.

أما مديح البوصيري للسلطان فلم يكن مباشرًا، بل كان يأتي غالبا في سياق مديحه للوزير الأثير لديه، أو لنائب السلطنة أو لأحد الأمراء الذين يتذوقون الشعر ويقربون الشعراء والعلماء.

وللبوصيري قصيدة مشهورة في القبة المنصورية والمارستان والمدرسة؛ هذا الصرح العظيم الذي بناه السلطان قلاوون، قد يظهر من سياق القصيدة للوهلة الأولى أنها قيلت في مديح السلطان؛ حيث إنه صاحب هذا الصرح، ولكن القراءة المتأنية لها تؤكد أن أكثر معانيها المدحية كانت من نصيب الوزير علم الدين سنجر الشجاعي الذي تولى عمارة هذا الصرح وأنجزه في زمن قياسي بصورة رائعة[22]. يقول في مطلع القصيدة:

جِوَارُكَ مِنْ جَوْرِ الزَّمَانِ يُجِيرُ وَبِشْرُكَ لِلرَّاجِي نَداكَ بَشِيرُ
فَضَلْتَ بَنِي الدُّنيا فَفَضلُكَ أَوَّلٌ وَأَوَّلُ فضلِ الأَوَّلِينَ أخِيرُ
وَأنتَ هُمَامٌ دَبَّرَ المُلْكَ رَأْيُهُ خَبِيرٌ بِأَحْوَالِ الزَّمَانِ بَصِيرُ

فالأبيات الثلاثة الأولى ليست في مديح السلطان، بل في مديح الأمير الشجاعي، وبعد ذلك يذكر علاقته بالسلطان حتى يسوغ أمر المديح فيقول:

إذَا المَلِكُ المَنْصُورُ حَاوَلَ نَصْرَةَ كَفَى المَلِكَ المَنْصُورَ منك نَصِيرُ
فلا تُنسِهِ الأَيَّامُ ذِكْرَكَ إنَّهُ بِه فَرِحٌ بينَ الملوكِ فخُورُ

ويستمر مادحا السلطان لعدة أبيات ثم يعود إلى مدح الأمير الذي قصده أساسا بمدحته. وقد أبدع البوصيري في وصفه لتلك العمائر بما يدل على إعجابه

المفرط بالبناء والتعمير، وحثه في الوقت نفسه لأهل الدولة على السير في هذا النهج المعماري الذي يعد واجهة لقوة الدولة وحضارة أبنائها.

مديحه للوزراء والأمراء:

وكان من عادة البوصيري في مدحه للأمير أو الوزير الأثير لديه أن يكيل له الثناء الحسن والفضائل الكريمة ثم يفسر أسباب ذلك، بطبيعته الجدلية التي فطر عليها. ففي قصيدته التي مدح بها الأمير شمس الدين سنقر نائب السلطنة يفصل البوصيري أسباب إعجابه بشخصية الأمير، بل وإعجاب السلطان به، وثقته فيه فيقول:

وَأنـــتَ هُمـــامٌ قَدَّمَتْـــهُ ثَلاثَـــةٌ لهـا المُنْتَهَـى قَـوْلٌ وَفِعْـلٌ ومَنْظَـرُ
مِـنَ التُّـرْكِ فـي أَخْلاقِـهِ بَدَوِيَّـةٌ لهـا يَعْتَـزِي زَيْـدٌ وَعَمْـرٌو وَعَنْتَـرُ
وَكَـمْ فِتْنَـةٍ بَـيْنَ العَشـيرِ أَزالَهـا وكـانَ بهـا للنـاسِ بَعْـثٌ وَمَحْشَـرُ
فَأَخمَـدَ مَـا بَـيْنَ الخَلِيـلِ بِرَأْيِـهِ ونـــابُلُسَ النـــارَ التـــي تَتَسَـــعَّرُ
وَقَـد زَبَـرَتْ زَبْـرًا وقَبْضًـا وحارِثًـا كِنانـــةُ مِثْـــلَ الكَـــرْمِ إِبَّـــانَ يُزْبَـــرُ
وَقد أخرَبَت ما ليسَ يَعْمُرُ عامِرٌ وقد قَتَلَتْ ما ليسَ يَقْبُرُ مَقْبَرُ
وَلَـوْلاهُ لـم تُخْمَـدْ مِـنَ القَـوْمِ فِتْنَـةٌ ولم يَنْعَقِد فيها عَلَى الصُّلحِ مشوَرُ
إذا مَـــا أرادَ اللَّهُ إِنْفَـــاذَ أَمْـــرِهِ يُنطِّـــقُ ذا رَأْيٍ بـــه وَيُبَصِّـــرُ
فـإِنْ فَـوَّضَ السُّـلْطانُ أَمْـرَ بِـلادِهِ إليـه فمـا خَلْـقٌ بِـهِ منـه أَجْـدَرُ

فكأننا إزاء مقدمات ونتائج، أسباب وجيهة كانت كفيلة بأن يتبوأ الرجل مكانته من السلطنة، فهو مميز، بل متقدم في المحاور الأساسية التي يتفاضل فيها الرجال: القول والفعل والهيئة، ثم إنه يجمع بين الأرومة التركية التي تتميز بالفروسية، والأخلاق العربية الأصيلة التي يضرب بها المثل، ويسوق ذلك في

صياغة أدبية راقية لا تخلو من المفارقة، فمع أنه من الترك إلا أن أخلاقه عربية بدوية لا تشوبها شائبة، يقتدي بها العرب أنفسهم، ولتأكيد ذلك يأتي بالأسماء العربية المشهورة ويجعلها تهفو إلى التأسي به. وتواصل قريحة البوصيري الناقدة الإدلاء بالأدلة التي تؤيد ما وصف به الأمير من أخلاق عربية أصيلة فيستعرض موقفه المشرف الذي أخمد فيه الفتنة بين قبائل العرب في فلسطين، بعدما حصدت الحروب من أرواحهم ما يفطر القلوب، ويذكر كيف أنه سعى بحكمة العرب إلى إبرام الصلح بينهم، وكأنه يذكرنا بهرم بن سنان والحارث بن عوف اللذين مدحهما زهير بن أبي سلمى امتنانا لدورهما الجوهري في إخماد حرب داحس والغبراء.

ومن الصفات التي كانت تحرك قريحة البوصيري في ممدوحه أن يكون ذا سمت ديني، وأهلا للصلاح والتقوى، ولعله بذلك يدعو أهل السلطة إلى سلوك هذا السبيل الديني الذي يكون سببا في إصلاح النفس، وبالتالي في إصلاح المجتمع والرفق بالرعية. ويقول في مديح الصاحب بن محمد:

اللهُ وَفَّقَــهُ فَوَفَّــقَ كُــلَّ مــا ... يَنْوِيــهِ مِــنْ نَقْــضٍ وَمِــنْ إبْـرَامِ
فكأنَّمــا الأَقْــدَارُ فــي تَصْــرِيفِها ... مُنْقــادَةٌ لِمُــرَادِهِ بِزِمــامِ
وَصَــلَ النَّهَــارَ بِلَيْلِــهِ فــي طَاعَــةٍ ... وصَــلاتُهُ مَوصُــولَةٌ بِصِــيامِ
كُحِلَــتْ بِتَقْــوَى اللهِ مُقْلَتُــهُ التــي ... لَــمْ تَكْتَحِــلْ أجْفانُهــا بِمَنَــامِ
يُمْسِــي وَيُصــبِحُ طاوِيًــا أحْشــاءَهُ ... كَرَمًــا عَلَــى سَــغَبٍ وحَــرِّ أُوَامِ
عَجَبًا لـهُ يَطْوِي حَشاهُ عَلَى الطَّوَى ... وَتَحُضُّــهُ التَّقْـوَى علــى الإطْعـامِ
نَزَعَـتْ ومَـا هَمَّـتْ بـهِ الـنُّفْسَ الَّتـي ... نَزَعَـتْ عـنِ الشَّـهَوَاتِ نَـزْعَ هُمـامِ
فَتَــنَعُّمُ الأَرْواحِ لــيسَ بِمُــدْرَكٍ ... إلاَّ بِتَــرْكِ تَــنَعُّمِ الأَجْســامِ
قَــرَنَ الــوزارةَ بالوِلايَــةِ فهْـوَ فِـي ... حِـلٍّ مِـنَ التَّقْـوَى وَمِـنْ إحْـرَامِ

فهو ينسب إلى ممدوحه صفات المؤمن التقي، من قيام الليل وصيام النهار، والتمسك بالشريعة، كما يصفه بالصفات التقليدية الأخرى التي تقر بها أعين الممدوحين كالكرم والشجاعة ورباطة الجأش:

جادت على سكان مصر غيومه ودهت صواعقه فرنج الشام

ثم يعود إلى ما يطربه من الصفات الدينية الصوفية، فيصفه بالولاية الربانية، ولتأكيد ذلك يقارن بينهم وبين أبي اليزيد البسطامي الصوفي المعروف فيقول:

بمَ زادَ عنْكَ أَبو يَزِيدَ وقد غَدَتْ مِصْرٌ مُفَضَّلَةً عَلَى بسْطامِ

لَمَّا عَمِلْتَ بما عَلِمْتَ مُراقبًا للهِ في الإقدامِ والإحْجامِ

طَوَّحْتَ بالدُّنيا وقُلْتَ لها الْحَقِي بِمَعاشِرِ الوُزراءِ وَالحُكَّامِ

وَنَسِيتَ ما لَمْ يُنْسَ مِنْ لَذَّاتِها وَعَدَتْكَ مِنْ جُمْلَةِ الآثامِ

فهو يؤكد على زهد ممدوحه، وقربه من الله، وإخلاصه في عبادته، فلقد باع الدنيا بالآخرة، وإن كان من أهل الدولة والسلطان.

ولا نستطيع أن نصف مدائح البوصيري هنا بالمبالغة الممقوتة خاصة إذا عرفنا أن كثيرا من ممدوحيه كانوا على قدم في الصلاح ومكارم الأخلاق، تدل على ذلك أخبارهم الواردة في مصادر التاريخ، كالصاحب تاج الدين بن محمد[23]، والصاحب بهاء الدين على بن محمد بن رضا[24] وغيرهما.

وأحيانا كان البوصيري يستغل قصائد المديح في تحريض الأمراء والوزراء على المخالفين من المستخدمين، وقد أشرنا قبل ذلك إلى هذه النقطة عند حديثنا عن النقد الاجتماعي. فبعد أن يرضي الممدوح بما يسره من مدح وتقريظ، نراه يغريه بالإطاحة بالمفسدين والأخذ على أيديهم، وكعادته يوظف طاقته الجدلية فيبرر موقفه التحريضي. يقول محرضا الأمير فخر الدين عثمان على بعض كتاب النصاري:

أُراقِبُ مَنْ عَاشَرْتُ منهم كأنَّني أُراقِبُ كلبًا أَوْ أُراقِبُ عَقْرَبا
كأني إذا أهْدِيهِمُ عَنْ ضَلالِهِمْ أُبَصِّرُ أَعْمىً أَوْ أُقَوِّمُ أَحْدَبا
فلا بُورِكَ المُسْتَخْدمونَ عِصابةً فكمْ ظالمٍ منهم عَلَيَّ تَعَصَّبا
إذَا ما بَرَى أَقْلامَهُ خلْتُ أَنَّه يَسُنُّ لَهُ ظُفْرًا ونابًا ومِخْلَبَا
يغالِطُني بعضُ النَّصَارَى جَهالةً إذا أَوْجَبَ المُلْغَى وَأَلْغَى المُوجَّبَا
ومَا كانَ مَنْ عَدَّ الثَّلاثَةَ وَاحدًا بِأَعْلَمَ مِنِّي بالحِسَابِ وأكْتَبَا

وحينما يريد الشاعر أن ينتقد موقفا للأمير، فإنه لا يواجهه مباشرة، بل يعرض الأمر مستدرا عطفه ورحمته، ولعلها الوسيلة الوحيدة، أو المدخل الوحيد، الذي يمكن أن يتعامل به مع أمراء المماليك في مثل هذه الحالة. وهذا أسلوب ربما أتى بثماره في وقته، خير مثال على هذا، ما ورد في سياق مدحه للأمير السابق ذكره فخر الدين عثمان، الذي يبدو أنه ظلم واحدا من الكتاب المسلمين على خلفية وشاية من كتّاب النصارى، فأمر بتعرية جسده وجلده. يقول البوصيري:

عجِبْتُ لِأمرِ آلَ بالشَّيْخ مخْلصًا إلى أَنْ يُعَرَّى كاللُّصوصِ وَيُضْرَبا
بَكَيْتُ لَهُ لَمَّا كَشَفْتُ ثيابَهُ وأَبْصرتُ جسمًا بالدِّماءِ مُخَضَّبا
وَحَلَّفْتُهُ باللهِ ما كانَ ذَنْبُهُ فأَقْسَمَ لِي باللهِ ما كانَ مُذْنِبَا
وَلكنْ حبيبٌ راحَ فِيَّ مُصَدِّقًا كلامَ عَدُوٍّ ما يزالُ مُكَذِّبا
فقلت ومن كان الأَميرُ حبيبَه فلا بد أَنْ يَرضَى عليه وَيَغْضَبا
فصَبْرًا جميلًا فالمُقدَّرُ كائِنٌ فقد كانَ أمرًا لم تجِدْ منهُ مَهْرَبَا

فكل ما فعله الشاعر هنا أنه أوصل الرسالة أو المظلمة إلى الأمير، وأخبره أن هذا الرجل المظلوم قد أقسم له بالله على أنه برئ مما نسب إليه، وأنه من

الموالين المخلصين، حتى بعد أن عوقب من الأمير، وهذا يعكس مدى القسوة التي كان يعامل بها الناس في هذا العصر، ويكشف عن السبل التي كان يسلكها الشعراء في استعطاف الأمراء المتسلطين واستجداء الرحمة من قلوبهم.

خاتمة البحث

من خلال هذه الدراسة، نستطيع أن نخلص إلى مجموعة من النتائج التي أسفرت عنها، وأهمها:

- أن شعر البوصيري بموضوعاته المتنوعة يعد مرآة واسعة لما كان عليه عصره من أوضاع وأحداث.
- أن مثل هذه الدراسات تثمر استكشاف ما وراء النص من أبعاد نفسية واجتماعية، ورؤى فكرية.
- أن المرحلة التي عاشها البوصيري شهدت صراعا ثقافيا ودينيا موازيا للصراع العسكري في الحروب الصليبية.
- أن البوصيري كان شاعرا ذا عقلية جدلية عالية المستوى، كما كان عالما فقيها متصوفا شارك بشعره وثقافته وعلمه مدافعا عن دينه وهويته في الصراع الحضاري في عصره.
- أن ظاهرة الاستغراق في المديح النبوي لديه كانت جزءا من رسالته المقدسة في هذا الصراع.
- أن البوصيري كان شاعرا مصريا يتميز بالروح الوطنية، ويتسم بسمات الشخصية المصرية.

الهوامش

[1] – انظر ترجمته في: الصفدي –الوافي بالوفيات –ج1 ص340 / ابن شاكر– فوات الوفيات –ج3– ص362/ المقفى للمقريزي ص250 (جمع محقق الديوان ما أوردته المصادر المختلفة عن البوصيري في خاتمة الديوان) / انظر خاتمة ديوان البوصيري – تحقيق محمد سيد الكيلاني – البابي الحلبي – القاهرة – الطبعة الثانية – 1973

[2] –ياقوت الحموي– معجم البلدان –باب الدال واللام وما يليهما.

[3]– انظر الديوان صـ44

[4] –ابن خلدون– المقدمة – دار الجيل – بيروت– صـ602

[5] – المقريزي – السلوك لمعرفة دول الملوك– أحداث سنة 690هـ

[6]– المقريزي– الخطط– مكتبة الآداب – القاهرة– جـ4 صـ263

[7] – د.محمد زغلول سلام– الأدب في العصر المملوكي – منشأة المعارف – الإسكندرية جـ1 صـ27

[8] – ورد ذكر هذه القصيدة في كتاب عقد الجمان للعيني في سياق حديثه عن المعركة. عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان – (ج 1 / ص 224)

[9]– د. أحمد أحمد بدوي– الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية– نهضة مصر– القاهرة 1979 صـ300،301

[10] – أبو القاسم القشيري– الرسالة القشيرية – دار الجيل – بيروت – ص208

[11] – ابن عباد الرندي– غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية – تحقيق د.عبد الحليم محمود، د. محمود بن الشريف–دار المعارف –القاهرة –جـ1 ص125–129

[12] – د. أحمد طاهر حسنين – إطلالة على بردة البوصيري وترسلاته– مجلة ألف–الأدب والمقدس–العدد23–2003م–ص98

[13] – انظر التمهيد ص 11

[14] –ورد في صحيح مسلم – (ج 13 / ص 303) ما نصه:

4937 – حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى التَّيْمِيُّ وَقَطَنُ بْنُ نُسَيْرٍ وَاللَّفْظُ لِيَحْيَى أَخْبَرَنَا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ إِيَاسٍ الْجُرَيْرِيِّ عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ قَالَ وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ:

"لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ قَالَ قُلْتُ نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَمَا ذَاكَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ"

[15] – انظر د. محمد زغلول سلام: الأدب في العصر المملوكي الأول – منشأة المعارف – الاسكندرية ج3 ص70

[16] – انظر د. فوزي أمين المجتمع المصري 452–453

[17] – انظر ما ورد بمقدمة الديوان ص9 وتعليق المحقق عليه.

[18] –ابن شاكر الكتبي – فوات الوفيات – تحقيق د. إحسان عباس – دار صادر – بيروت – ج3 ص336.

[19] – المقتفي للمقريزي/ مخطوطة بدار الكتب/ ديوان البوصيري /ص 285 نقلا عنه.

[20] – أشرنا في التمهيد إلى تعليق د. بدوي على هذه القصيدة.

[21]– المقريزي– السلوك– جـ1 صـ756 (حوادث سنة 689)

[22]– انظر المقريزي السلوك جـ3/1 صـ716 (حوادث سنة 682)

[23] – محمد بن محمد بن علي بن محمد بن سليم المصري، الصاحب تاج الدين ابن الصاحب فخر الدين ابن الوزير بهاء الدين ابن حنا؛ ولد سنة أربعين وستمائة، وتوفي سنة سبع وسبعمائة، وسمع من سبط السلفي ومن الشرف المرسي، وبدمشق من ابن عبد الدايم وابن أبي اليسر، وانتهت إليه رياسة عصره بمصره، وكان ذا تصون وسؤدد ومكارم أخلاق

وشكل حسن وبزة فاخرة إلى الغاية، يتناهى في المطاعم والملابس والمساكن، ومع ذلك صدقاته كثيرة وتواضعه وافر، ومحبته في الفقراء والصلحاء زائدة، وهو الذي اشترى الآثار النبوية – على ما قيل – بستين ألف درهم وجعلها في مكانه بالمعشوق، وهو المكان المنسوب إليه بالديار المصرية، وهي قطعة من العنزة ومرود ومخصف وملقط من فضة، ورأى من العز والرياسة الوجاهة ومن السيادة ما لا رآه جده الصاحب بهاء الدين.– ابن شاكر – فوات الوفيات – ج 3 –ص 255

[24] – علي بن محمد بن سليم، الصاحب الوزير الكبير بهاء الدين ابن حنا المصري، أحد رجال الدهر حزمًا وعزمًا ورأيًا ودهاء وتصرفًا، استوزره الظاهر وفوض إليه الأمور، ولم يكن على يده يد، وقام بأعباء المملكة، وكان واسع الصدر عفيفًا نزهًا لا يقبل لأحد شيئًا إلا أن يكون من الصلحاء والفقراء، وكان يحسن إليهم ويحترمهم ويدر عليهم الصلات، وقد قصده غير واحد بالأذى فلم يجدوا ما يتعلقون به عليه، ووزر بعد الظاهر لابنه السعيد، وزادت رتبته، وله مدرسة وبر وأوقاف. ابتلي بفقد ولديه: فخر الدين ومحيي الدين فصبر وتجلد، وعاش أربعًا وسبعين سنة، وتوفي سنة سبع وسبعين وستمائة. – ابن شاكر – فوات الوفيات – ج3 – ص 76.

مراجع البحث

- د. أحمد أحمد بدوي– الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية– نهضة مصر– القاهرة 1979.
- د. أحمد سيد محمد– الشخصية المصرية في الأدبين الفاطمي والأيوبي – طبعة دار المعارف–1979.
- د. أحمد طاهر حسنين – إطلالة على بردة البوصيري وترسلاته– مجلة ألف– الأدب والمقدس– العدد23–2003م.
- البوصيري – ديوانه– تحقيق محمد سيد الكيلاني – البابي الحلبي – القاهرة – الطبعة الثانية – 1973.
- ابن تغرى بردى – المنهل الصافي –طبعة دار الكتب 1956.
- ابن خلدون– المقدمة – دار الجيل – بيروت.
- السبكي تاج الدين – معيد النعم ومبيد النقم– طبعة دار الكتاب العربي 1948.
- السيوطي– تاريخ الخلفاء– تحقيق محيي الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية– بيروت 1989.
- ابن شاكر الكتبي – فوات الوفيات – تحقيق د. إحسان عباس – دار صادر – بيروت–1974
- ابن عباد الرندي– غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية – تحقيق د.عبد الحليم محمود، د. محمود بن الشريف–دار المعارف –القاهرة.
- د. فوزي أمين– المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول – دار المعارف القاهرة 1982.
- أبو القاسم القشيري– الرسالة القشيرية – دار الجيل – بيروت.

- د. محمد زغلول سلام– الأدب في العصر المملوكي– منشأة المعارف – الإسكندرية.
- محمود رزق سليم –عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي –طبعة وزارة الثقافة – 1962.
- محيي الدين بن عبد الظاهر – تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور – تحقيق: مراد كامل، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافة، 1961، القاهرة.
- د. مصطفى الجويني – ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية – طبعة الهيئة المصرية العامة 1970.
- المقريزي –المقتفي – مخطوطة بدار الكتب– المجلد الأول – 5372 تاريخ.

– الخطط – مكتبة الآداب القاهرة.

– السلوك لمعرفة دول الملوك– دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة –الطبعة الثالثة – 2006.